الأمثال فى القرآن..
وصفة المؤمنين فى التوراة والإنجيل

ومثل آخر ضربه الله فى القرآن لأهل الكتاب عن المؤمنين.. يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الفتح: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٩].

والله سبحانه وتعالى أراد أن يقول لأهل الكتاب إن هذا الدين يجمع بين الدنيا والآخرة فلا هو معزول عن ماديات الدنيا ولا هو معزول عن الروحانيات، بل هو دين ودنيا يأخذ من كل بقدر صلاح المؤمن وبقدر المنهج.

ولما كان اليهود قوما ماديين يقدسون المادة وحدها، ويكنزون المال ولا يعطون اهتماما إلا لماديات الحياة، فقد جاء الله لهم بمثل للعبادة فقال: ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ [الفتح: ٢٩].

ليقول لأهل التوراة إن موكب الإيمان فى الإسلام لا يعتمد على الماديات وحدها ولكنه يعطى العبادة لله حقها، وتراهم دائماً فى المساجد يعبدون الله ركوعا وسجودا حتى أنهم من كثرة السجود فإن ذلك يظهر على وجوههم علامة بارزة يعرفهم الناس بها عندما يشاهدونهم؛ أى إن الموكب الإيمانى فى الإسلام لا ينطلق إلى ماديات الدنيا وينسى عبادة الله سبحانه وتعالى بل هو يعطيها حقها تماما.

أما فى الإنجيل فحيث تأخذ الروحانية نصيبا كبيرا يعطى الله مثلاً ماديا للمؤمن كزرع اعتنى به حق عنايته فكبر واشتد عوده وغلظ، وكلما رآه الكفار ورأوا ما هو فيه من حسن عناية وإثمار دب فى قلوبهم الغيظ؛ وذلك ليؤكد الله سبحانه وتعالى أن الموكب الإيمانى فى الإسلام لا يهمل أمور الدنيا ويتركها، بل هو يأخذ بأسباب الدنيا والآخرة وأن منهج الإيمان فيه ما يؤدى إلى صلاح العبد المؤمن فى دنياه وفى آخرته.

وبذلك تكون أمثال مواكب الإيمان التى ضربها الله سبحانه وتعالى تؤكد لنا أن موكب الإيمان يسعى دائما إلى مواجهة الكفر والإلحاد بالحجة والبرهان وأن هذا الموكب الإيمانى لا يتوقف أبدا وأن عنده مما أعطاه الله من البراهين ما يجعله قادرا على أن يواجه أى مجتمع كافر، وأن الكفار فى لجوئهم إلى القوة و العنف و القتل فى محاربة الدين

الإسلامي إنما يفعلون ذلك لأنهم لا يستطيعون مواجهة هذا الدين بالحوار والإقناع، وأن هؤلاء الكفار ليسوا بمعجزين في الأرض ولا يساوون عند الله شيئاً وهو إن كان يتركهم فى غيهم فلأنه كتب على نفسه أن يترك الإنسان مختارا فى أن يؤمن أو يكفر، وليس لقيمتهم أو لعلو شأنهم أو لأنهم يساوون شيئاً على الإطلاق.

وإن موكب الإيمان لابد أن يستمر وعليه واجب هو مواجهة الكافرين و الدعوة إلى دين الله، ولكن إذا حدث أن تمكن الكفر فى بقعة من الأرض وكان مصير المؤمنين إما أن يقتلوا أو يرجموا فيتوقف موكب الإيمان إلى حين، أو أن يكرهوا على العودة إلى الكفر علنا وأمام الناس حينئذ يحق لهم أن يفروا بدينهم إلى مكان آخر على أن يعودوا وهم أكثر قوة وأن الله سبحانه وتعالى قادر على أن ينصر دينه دونما معونة أو حاجة إلى أحد من البشر، ولكن مواكب الإيمان هى رحمة من الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين ليثيبهم بها فى الآخرة ويدخلهم الجنة.

وأن الله يعلم أن الذين يتخذون طريق الإيمان و الدعوة إليه يحاربون من الكفار ومن غير المؤمنين حتى يضيقوا عليهم حياتهم، وأن الله يفتح لهم من رحمته ما يبدل هذا الضيق فرجا ويوجد لهم من السبل ما يعوضهم عن هذه الحرب التى يلاقونها من أعداء الدين، ثم يثبتهم باليقين ويريهم من آياته ما يثبتهم على المنهج ويثلج صدورهم بأنهم اختاروا الطريق المستقيم، وموكب الإيمان لا يترك الدنيا وما فيها ولا يترك الآخرة وما أعده الله لها بل هو منهج عبادة يعطى لكل حقه، فالدنيا معبر للآخرة لابد فيها من العمل، والآخرة خلود لا بد أن نعد أنفسنا لها

وكما أعطى الله الأمثال على مواكب الإيمان أعطى الله الأمثال عن الكافرين.

أمثال ونماذج
من سلوك الكافرين وفكرهم

فى هذا الفصل سنتناول نماذج لسلوك الكافرين وفكرهم كما بينه الله، وفى فصول قادمة سنشرح بالتفصيل الأمثال التى تحدى الله بها الكفار وهى أكثر من مثل فى القرآن الكريم.

وقبل أن نبدأ الحديث لا بد أن نأخذ مثلاً عاماً، فالله سبحانه وتعالى فى سورة إبراهيم يقول: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨].

وقال الحق تبارك وتعالى فى سورة الكهف: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ۝ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ۝﴾ [الكهف].

وقال الله تعالى فى سورة النور: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

وفى هذه الأمثال الثلاثة ينبئنا الله عن مصير أعمال الكافرين أو من يكفر بالله ولا يؤمن، والله فى هذا يريد أن يلفتنا إلى قضية إيمانية هامة هى أن أساس العمل الصالح أن يكون مقرونا بالإيمان فإن لم يكن مقرونا بالإيمان ذهب عنه صلاحه وضاعت قيمته وذهب إلى المقصود منه والله سبحانه وتعالى يقول فى حديث قدسى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك»[1].

وهذه نقطة بداية هامة لأن بعض الناس يعتقد أنه يستطيع أن يشرك مع الله شركاء فى العمل ثم يأخذ الجزاء من الله، وأولئك الذين يذهبون إلى الحفلات الخيرية مثلاً ويعلنون عن أسمائهم ويتباهون أمام الناس بما تبرعوا بل يحاول كل منهم أن يزيد على الآخر حتى يقال إنه رجل بر أو رجل إحسان أو أنه أغنى منه إلى آخر ما يحدث، هل يحتسب لهؤلاء جميعا وهذا قصدهم ونياتهم، هل تحتسب الحسنات لهم من الله وهم يقصدون بها غير وجه الله؟ الجواب طبعا لا.

ومثل ذلك ما يقال من أن ٢٥٪ من حصيلة سباق الخيل تذهب للخير، نقول: أى خير هذا الذى يأتى بارتكاب معصية، وهل الله فقير محتاج إلى مال حتى ينفق من معصية أو مما حرم الله، إن الله سبحانه وتعالى هو الذى يملك خزائن الأرض كلها وهو الذى

---

(١) سبق تخريجه.

يرزقنا، وكل المال الذى فى الأرض هو مال الله سبحانه وتعالى، فكلنا يخرج من الدنيا ويتركه والله هو الذى يرث وحده الأرض وما عليها ولذلك يقول الله تعالى: ﴿ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد: ٧].

أى: إن المال أصلاً ملك لله وهو الذى يجعلنا مستخلفين فيه لفترة من الفترات طالت أو قصرت، ولكمية زادت أو نقصت، ومن هنا فإن الله غير محتاج إلى مال حتى تنفق فى وجوه البر من المعاصى ومما حرم الله والله طيب لا يقبل إلا طيبا ومن هنا فإن لم يكن المال من الحلال فإن الله لا يقبله.

هذه قضية لابد أن نفهمها حتى لا تحبط أعمالنا فى الحياة الدنيا، ولكن هب أن المال من الحلال فعلاً وأن العمل يقصد به الخير ولكن الإيمان بالله غير موجود هل يقبل هذا العمل ويجازى الناس عليه، وهل هؤلاء الناس الذين عملوا كما يقولون من أجل الإنسانية والذين قد يكون الله كشف على أيديهم دواء نافعاً أو اختراعا أفاد الإنسانية، هل هؤلاء يدخلون الجنة مع عدم إيمانهم؟ وهل ما قدموه من عمل للإنسانية يغفر لهم أنهم لم يؤمنوا بالله أو يجعل الله يتجاوز عن ذلك؟

الجواب طبعا لا؛ ذلك أنك فى أى عمل تقوم به إنما تطلب الجزاء ممن عملت من أجله، فأنت مثلاً إذا كنت تقوم ببناء عمارة لى تطلب الأجر منى، وإذا قمت لغيرى تطلب الأجر منه، ولا يعقل أن تقوم بالعمل لإنسان آخر أو لشخص آخر ثم تأتى فتطلب منى الجزاء.

والأساس فى الأعمال كلها وفى الدنيا كلها هو الإيمان؛ ذلك لأن الدنيا هى دار اختبار للإيمان فيها امتحان يليه امتحان. منها الابتلاء بالخير، والابتلاء بالشر، ومنها الفتنة التى يسقط فيها البعض وينجو البعض بإيمانهم منها، كل هذه وكل أحداث الدنيا هى اختبار للإيمان البشرى والله غنى عنا جميعا لا نزيد فى ملكه شيئاً ولا ننقص منه شيئاً؛ ذلك أن الله قد خلق الكون بكل ما فيه من نعم وآيات وخصائص وأسرار كشف الله للعقل البشرى بعضا منها وما زال هناك ما هو مجهول للبشر كل هذا خلقه الله قبل أن يخلقنا نحن ولذلك فنحن لا نزيد فى صفات قدرة الله ولا كماله شيئاً ولا ننقص منها شيئاً.

إذا كان فى قلبنا غير الله فإن الله يوفينا أجرا ممن عملنا من أجله سواء أكان هذا الجزاء خيرا أم شرا، أما فى الآخرة فليس لنا شيء لأننا لم نعمل من أجل الله لذلك شاء عدل الله أن الذين يعملون من أجل الدنيا يوفيهم أجورهم فى الدنيا مصداقا لقوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى: ٢٠].

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

ولذلك ترى أن من عمل من أجل الإنسانية مثلا تخلده الإنسانية فتقام له المعامل وترصد له الجوائز ويطلق اسمه فى الدنيا كلها وهكذا نال جزاءه من نوع ما عمل من أجله ومَن يعمل مِنْ أجل مجموعة من الناس فإنهم يرفعونه ويبنون له القصور وربما عينوه حاكماً عليهم، ومن هنا فقد نال جزاءه من العمل نفسه الذى قام به، ومن يعمل من أجل الله واليوم الآخر يجد جزاءه عند الله سبحانه وتعالى فى الآخرة ذلك هو عدل الله وهو الأساس فى الحساب.

الله سبحانه وتعالى يريد أن يفهمنا ذلك فيضرب لنا الأمثال حتى يقرب هذا المعنى من أذهاننا وحتى نستطيع أن نستوعبه. ومن ذلك قوله تعالى:

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨].

فالله يريد أن يقول لنا إن الذين كفروا وهم لا يؤمنون بى ويكفرون بألوهيتى مهما عملوا وما دام الإيمان ليس فى قلوبهم فمثل أعمالهم كالرماد «والرماد هو التراب المتخلف عن الحريق»، نأتى بهذا الرماد ونضعه فى أى مكان خلوى فى يوم عاصف أى شديد الريح تبلغ فيه الرياح من شدتها قوة العاصفة؛ وذلك حتى لا يتبادر إلى أذهاننا أن الرياح ربما تكون شديدة ولكنها فى شدتها قد تترك شيئاً؛ ولذلك يصورها الله بالعاصفة التى لا تترك شيئاً من الرماد على الإطلاق إلا بعثرته وأضاعته، فهم - أى هؤلاء الكافرون - فى أعمالهم مهما قصدوا بها إنما هى كالرماد الذى أطاحت به عاصفة، ومهما كسبوا فهم لا يقدرون على شىء منه أى لا يبقى لهم شىء منه لماذا؟ لأنهم ليس الله فى قلوبهم ومن هنا فإنهم لم يبقوا شيئاً للآخرة ولم يعملوا شيئاً يقصدون به وجه الله ولذلك ضاعت أعمالهم جميعا كما تضيع حفنة من الرماد فى العاصفة.

ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾.

والضلال يأتى من الضلالة؛ وهى من ضل الطريق أى ابتعد عن الغاية التى توصله إلى الهدف، أى إن هؤلاء الناس بعدم إيمانهم وكفرهم قد ابتعدوا عن الطريق الذى يجعل الله سبحانه وتعالى يتقبل منهم صالح الأعمال؛ ولذلك كان ضلالهم بعيدا لأنهم متى ابتعدوا عن الغاية لم يصلوا إلى شىء ومهما عملوا وفى قلوبهم ظلام الإلحاد والكفر فلن يتقبل منهم.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ۝ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ۝﴾ [الكهف].

يريد الله أن ينبئنا بالأخسرين أعمالاً واستخدام الله سبحانه وتعالى لكلمة الأخسرين هو استخدام لصيغة المبالغة أى إن هناك من هو خاسر وهناك من هو أخسر منه أى إن هؤلاء الناس ليسوا من الخاسرين فقط بل من الأخسرين الذين لا ينالون شيئا على الإطلاق ولا يكسبون شيئا.

ولكن.. من هم هؤلاء الناس الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا؟ إنهم من ضلوا عن الطريق فيما يفعلون واتخذوا طريقا لا يوصلهم، وهم فى ضلالهم هذا لا يحسون بأنهم قد بعدوا عن الطريق بل يحسبون أنهم يحسنون صنعا ويعملون الخير، ويحسبون أنهم سيجزون على ذلك بأحسن الجزاء، ويتفاخرون على الناس بأنهم يفعلون طيبا، ثم يعرفهم الله سبحانه وتعالى فيقول: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف: ١٠٥].

أى: إن هؤلاء الناس كفروا بالله، وكفروا بآياته، وكفروا بالآخرة، ورغم أن آيات الله سبحانه وتعالى واضحة بينة لا يستطيع غيره أن يدعيها لنفسه، ولا يمكن لعقل أن ينكرها فأمامهم الكون والشمس، والقمر، والنجوم، والأرض، والبحار، وكل ما خلقه الله مما لا يستطيع غير الله أن يدعى خلقه، أمامهم هذه الآيات بينة ظاهرة ومع ذلك كفروا بها، وأمامهم الخلق والبعث قضيتان محسومتان، فالذى خلق أول مرة كما قلنا يستطيع أن يعيد هذا الخلق، ورغم هذه الآيات البينات فقد كفروا بها وبلقاء الآخرة، وعملوا وليست فى قلوبهم إلا الدنيا وحدها؛ ولذلك فإنهم لا وزن لهم عند الله سبحانه وتعالى يوم القيامة، لأنهم لم يقدموا شيئاً لهذا اليوم حتى يمكن أن يوضع فى ميزان أعمالهم، وبماذا يجزون فى هذا اليوم؟ يجزون بجهنم؛ ذلك هو جزاء من يكفر بالله وآياته ورسله، ولا يكفر فقط وإنما يزداد فى الكفر ويستهزئ بالإيمان ويسخر من المؤمنين.

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [النور: ٣٩].

وهنا يضرب الله مثلاً آخر لأعمال الكافر التى يحسبها طيبة نافعة له، فيقول الله سبحانه وتعالى: إن مثلها كمثل السراب الذى يراه المسافر فى الصحراء عند وقت الظهر وعند اشتداد وهج الشمس.

وكلنا يعرف السراب الذى يظهر فى الصحراء من انعكاس ضوء الشمس؛ أى إن عمل الكافر الذى يحسب أنه سيحسب له وسيجزى عنه تماما كالسراب الذى يراه المسافر فى الصحراء عن بعد فى يوم شديد الحر وهو ظمآن يتمنى شربة ماء ويبحث عنها بأى ثمن، يرى الكافر هذا السراب فيحسبه ماء ويسرع إليه وهو ظمآن من شدة الحر، وعندما يصل إلى مكانه لا يجد شيئا، أى لا يجد أنه قد كسب شيئاً على الإطلاق مما عمل ما دام قد كفر بالله، ولكن المفاجأة التى تذهله والتى لم يكن يحسب لها حساباً هى أنه يجد الله عنده؛ أى إن الكافر يوم القيامة وهو يوم الأهوال يبحث عن العمل الطيب الذى اعتقد أنه قد قام به فى الحياة الدنيا والذى يظن أنه قد يشفع له فى هذا اليوم، ولكنه لا يجد شيئاً ثم يجد الله سبحانه وتعالى الذى لم يؤمن به والذى لم يحسب حساب لقائه فيوفيه أجره وجزاءه من جنس العمل الذى قدمه لله وهو الكفر به، والهزء بآياته ورسله فماذا يكون

الجزاء فى هذه الساعة؟ يكون نار جهنم وبئس المصير و اللّه سريع الحساب أى إن اللّه سبحانه وتعالى قادر على أن يوفيه حسابه بسرعة، لأن اللّه لا يشغله حساب عبد عن حساب عبد آخر.

أعتقد أننا فى هذه الحالة تكون قد وصلنا بوضوح إلى أن الإيمان هو أساس تقبل الأعمال، وأن اللّه لا يتقبل عملاً من كافر ولا عملا من مشرك، وإنما يتقبل العمل الذى يقصد به وجه اللّه وحده.

ومن هنا فإن كل قول عن أناس عملوا فى الدنيا وقلوبهم كافرة أو قدموا للإنسانية وهم لا يؤمنون باللّه ولا باليوم الآخر.

كل قول بأن هؤلاء يدخلون الجنة هو قول مردود، وإنما يجزون أعمالهم فى الدنيا بما عملوا، ولكن اللّه الذى لم يقصدوه بأعمالهم ولا كان فى قلوبهم لا يقيم لهم يوم القيامة وزنا، ولا ينتظرون منه جزاء بل إن اللّه سبحانه وتعالى شاءت رحمته أن يعطينا مثلاً للفرق بين أعمال المؤمن و الكافر ليقرب لنا هذا المعنى، وحيث إن جزاء اللّه هو غيب عنا لا نستطيع أن نذكره فقد أراد اللّه بهذا المثل أن يقربه إلينا حتى نستطيع أن نفهمه ونحسه، وأن تكون الصورة قريبة من أذهاننا.

ولذلك قال اللّه سبحانه وتعالى فى سورة البقرة: ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦١].

ثم يقول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

فى هذا المثل يعقد اللّه مقارنة بين الذى ينفق فى سبيل اللّه وقلبه يملؤه الإيمان وبين ذلك الذى ينفق مراءاة للناس وقلبه فيه الكفر والعياذ باللّه، ليقرب إلى أذهاننا الفرق الرهيب بين الجزاء الذى ينتظر المؤمن و الجزاء الذى ينتظر الكافر على العمل نفسه ولكن أحدهما يقوم به وفى قلبه إيمان ويقصد به وجه اللّه، والثانى يقوم به وفى قلبه كفر ويقصد به الناس أو الدنيا.

يقول اللّه تعالى: ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦١].

أى: إن اللّه سبحانه وتعالى يريد أن يعطينا مثلاً لكل من ينفق مالا فى سبيل اللّه يقصد به وجه اللّه سبحانه وتعالى.

ونلاحظ هنا أن اللّه سبحانه وتعالى قد استخدم كلمة أموالهم، مع أن المال هو مال اللّه ولكن اللّه أراد هنا أن يحترم الأسباب فى الكسب حتى يحس كل مؤمن بأنه ينفق من

جهده فى سبيل الله، وأنه يعطى شيئاً من ذاته فى سبيل الله فيحس بفرحة العمل الصالح.

ويريد الله أن يكرم عبده المؤمن أو يكرم عمله ويقول له: هذا من مالك أو مما اكتسبته وأنا قبلته وهذا إكرام من الله سبحانه وتعالى لعباده الصالحين.

﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦١].

الله سبحانه وتعالى وعدنا بأن الحسنة بعشر أمثالها وأنها بسبعمائة ضعف وأن الله يضاعف لمن يشاء، قد تكون هذه الحقيقة بعيدة عن فكر بعض الناس فيتساءلون كيف يمكن أن يضاعف الله الحسنة بمثل هذه المضاعفات، وكيف يمكن أن يكون الشىء الواحد بسبعمائة ضعف، حينئذ يقول الله أنتم تستغربون هذا الجزاء لأنه مخفى عنكم وليس قريبا إلى عقولكم، ولكننى سأقربه إلى عقولكم بمثل ترونه كل يوم ويعيش فى حياتكم المادية؛ حتى تكون الصورة قريبة إلى أذهانكم، هل ترون الأرض التى تزرعونها إنك تضع الحبة الواحدة فيها فتعطيك أضعاف أضعاف هذه الحبة، إن المال الذى تنفقه فى سبيل الله مثل حبة قمح تضعها فى الأرض، الحبة الواحدة تنتج سبع سنابل، فى كل سنبلة من هذه السنابل مائة حبة أى إن الله سبحانه وتعالى يقول لا تستغرب من أننى أضاعف الحسنات هذه المضاعفة الكبيرة، فلو أنك نظرت إلى الأرض التى هى مخلوق من مخلوقاتى فإنك تجد أنك تضع فيها الحبة فتعطيك سبعمائة حبة، فإذا كان خلق من مخلوقاتى يعطيك سبعمائة ضعف؛ فما بالك بقدراتى وأنا الخالق على أن أضاعف الحسنات إلى أكثر من ذلك؛ ولذلك يقول الله: ﴿ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢٦١] أى إنها لا تقف عند سبعمائة ضعف بل هى مرتبطة بمشيئة الله سبحانه وتعالى فهو يضاعف لمن يشاء وبهذا يكون الله سبحانه وتعالى قد قرب لنا صورة مضاعفة العمل الصالح وصورة مضاعفة الجزاء للمؤمنين؛ بحيث أصبحت صورة محسوسة قريبة إلى ذهن المؤمن يراها أمامه كل يوم فلا يقول أحد كيف يضاعف الله الحسنات، وكيف أن الحسنة بسبعمائة ضعف، بل كلما نظر إلى الزرع وإلى ما تنبته الأرض تذكر قدرة الله الذى أعطى للأرض خاصية المضاعفة، وكيف أنه سبحانه وتعالى وهو خالقها قادر على المضاعفة أكثر وبلا حدود.

ثم يأتى الله إلى الصورة المضادة صورة ذلك الكافر الذى ينفق ليس فى سبيل الله، ولكن من أجل نفاق الناس ورضائهم و الذى يقدم على العمل وليس فى قلبه الله فبماذا يشبهه؟

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]. أى كمثل صخرة ملساء ليس فيها حتى ولا تعاريج بسيطة يمكن أن تبقى شيئاً مما عليها، أى إن هذه الصخرة ملساء تماماً ليس فيها أى فجوات، عليها تراب يغطى سطحها قد يحسبها

بعض الناس تربة طيبة لكنها كمية من التراب فوق صخر ﴿ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٤] أى مطر شديد وهنا نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى لم يقل أصابها مطر فقد يكون المطر خفيفا فيترك جزءا من التراب فوق الصخرة، ولكن إذا كان هناك وابل من المطر فلا تبقى ذرة واحدة من التراب فوقها، حينما ينزل هذا الوابل من الماء أصبحت الصخرة ﴿ صَلْدًا ﴾ أى: ليس عليها ذرة واحدة من التراب الذى كان فوقها وانكشف أنها صخرة لا تنبت شيئاً وأن التراب الذى كان فوقها ليس تربة وليس له قرار بل هو مجرد طبقة لا تنفع ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

أى: إن الله يريد أن يقول لنا إنه حتى طبقة الغبار البسيطة التى قد تغطى حقيقة هؤلاء الكافرين فى الدنيا لا يبقى منها شيء.

وهنا لابد أن نستحضر الفرق الرهيب بين أعمال المؤمن و الكافر، ونستحضرها من هذا المثل الذى أعطاه الله لنا، فنجد أن المؤمن يقوم بالعمل فى سبيل الله ويضاعف له هذا العمل إلى سبعمائة ضعف، والكافر قد يقوم بعمل الخير ولكنه يريد أن يرائى به الناس ولا يقصد به وجه الله ولا اليوم الآخر، ومن هنا فإنه لا يحسب له شيء، وهذا حتى نؤمن يقينا بأننا إذا أردنا عملا يجزينا به الله فلابد أن نقصد به وجه الله سبحانه وتعالى، ولا نقصد غيره ولا نشرك معه أحدا، بعض الناس يناقش هذه القاعدة الإيمانية بحدة نقول له: لماذا أنت تناقشها بهذه الحدة هل كان فى باله الله وهو يعمل؟ إن كان فى باله الله وقت أن عمل فهو عمل إيمانى يجازى عليه، وإن لم يكن فكيف تطلب من الله أجرا عن عمل ليس فيه شيء لله؟! ولو قلنا لهذا الكافر وهو يعمل إنك لن تأخذ أجرا من الله فسيهز كتفيه بلا مبالاة لأن الله لا وجود له عنده، فكيف يأتى فى الآخرة مجادلا فيما فعل وهو لم يأبه فى الدنيا بما قلناه له، الإنسان يطلب أجرا ممن عمل له ومن عمل للإنسانية وأعطته الإنسانية وكرمته وأقامت له حفلات التكريم ونشرت اسمه فى الدنيا كلها هذا أجره فى الدنيا، على أن بعض الناس يجادل فى ذلك ويقول إن الله قال فى كتابه إنه يغفر الذنوب جميعا.

ونحن نقول لهم إن الله قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨].

فيقول إن هناك تعارضا بين تلك الآية وبين قوله إن الله يغفر الذنوب جميعا، ونقول له أنت الذى أخطأت حين اعتبرت الشرك ذنبا ولكن الشرك ليس ذنبا إنه فوق الذنوب جميعا ذلك أن الذنب يقتضى أن تكون مؤمنا بمنهج وخالفته، ولكن الشرك هو عدم إيمان بالمنهج أصلا؛ فلفظ الذنب لا ينطبق على المشرك لأن المشرك ليس مؤمنا بمنهج الله، وشرط الذنب الذى يقتضى المغفرة من الله سبحانه وتعالى أن يكون هناك إيمان ومخالفة وندم وتوبة و الكافر لا يندم لأنه لا منهج له.

الأمثال فى القرآن.. والمنافقون

الله سبحانه وتعالى كما ضرب الأمثال للكافرين ضربها أيضا للمنافقين، بل جاء فى القرآن الكريم أن المنافقين أخطر على قضية الدين من الكافرين، ذلك أن الكافر معروفة عداوته بالنسبة لقضية الإيمان وهو يجاهر بهذه العداوة؛ لذلك فإن المؤمنين يأخذون حذرهم منه ويواجهونه وهذه العداوة المسبقة تجعل كل ما يصدر عنه مرفوضا أما المنافق فهو يظهر المودة ويخفى العداوة ولذلك فإن المؤمنين يظنونه واحدا منهم فلا يأخذون حذرهم منه ولا ينظرون إلى ما يقول على أساس أنه عدو لله وفى هذه الحالة فهم يأمنونه، ويمكن أن يستغل هو هذا الأمان فى أن يطعن فى قضية الدين ويشكك فيها ويجد آذانا تسمعه؛ ولذلك فإن المنافق أخطر على قضية الإيمان من الكافر.

ولذلك يضرب الله مثلاً لهم فى سورة البقرة فيقول: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [البقرة].

وهكذا أراد الله بهذا المثل أن يوضح لنا مدى اضطراب المنافقين ومدى قلقهم ومدى الحيرة والتمزق فى ملكات هؤلاء، هذا التمزق الذى يفضحه تصرفهم عندما يعلنون الإيمان باللسان ولكن قلوبهم ممتلئة بالكفر.

وإذا أردنا أن نفهم المثل فلابد أن نستعرض الآيات التى قبله يقول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [البقرة].

إلى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [البقرة].

والله سبحانه وتعالى يمثل هؤلاء بمن استوقد نارا لتضىء ما حوله وبمن أراد أن يهتدى لما حوله فذهبوا إلى المؤمنين علهم يحصلون على الهداية أو يرون طريق الهداية الذى كان فى قلوبهم، فلما أضىء لهم الطريق، ولأنهم غير صادقين مع الله وغير صادقين

مع أنفسهم، ذهب الله بنورهم وأصبحوا لا يرون شيئاً وتركهم الله فى الظلمات التى اختاروها لأنفسهم بنفاقهم وجشعهم وحبهم للدنيا تركهم في هذه الظلمات لا يبصرون طريق الهدى ولا طريق الإيمان أى إنه سبحانه وتعالى علم ما فى قلوبهم وما يخفونه من كفر ونفاق فأثابهم بهذا الكفر الذى يخفونه فأصبحوا لا يرون شيئاً ولا يسمعون.

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٩].

والصيب هو المطر و المثل كما قلنا يضرب عن المنافقين فكأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يشبههم بأنهم كقوم أصابهم نزول المطر من السماء، والمطر كما نعلم جميعا رزق عميم وخير وفير، ولكنهم لم يأخذوا من المطر خيره.

لأنه كما قال القرآن الكريم: إن ذلك المطر فيه ظلمات ورعد وبرق، أى: إنه مطر عاصف صاعق يذهل النفس عما هى فيه فهم أخذوا ما جاء فى المطر من الصواعق والرعد والبرق ولم يلتفتوا إلى خير المطر نفسه.

ولابد أن نتأمل بالتفصيل هذه الصورة القرآنية التى تمثل حال المنافقين نحن نعرف أن المطر ينزل من السحاب وأن السحاب حين يتجمع فى الجو يورث الظلمة نهارا؛ لأنه يحجب ضوء الشمس ويورثها ليلا لأنه يحجب نور النجوم والقمر فالظلمة سابقة لنزول المطر؛ لأنه لا مطر إلا من سحاب والسحاب من طبيعته أن يوجد الظلمة ومن طبيعته أيضا أن يصاحبه رعد وبرق والرعد يستقبله الإنسان بآلة السمع وهى الأذن وأما البرق فيراه الإنسان بآلة الإبصار وهى العين.

ولما كان صوت الرعد قويا فعندئذ يفزع الإنسان عند سماعه ويحاول أن يبعد الصوت أو يمنع استقبال الأذن للصوت بأن يضع أصابعه فى أذنيه لمنع شدة صوت الرعد على أذنيه كما يحدث ذلك أيضا بالنسبة لأى صوت عال يزعج الأذن وإن كان أقوى هذه الأصوات هو الرعد، ولنا هنا أن نتأمل قوله تعالى ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم ﴾ [البقرة: ١٩] ذلك أن كل كلمة فى القرآن الكريم كما قلنا من قبل مناسبة تماما لموضوعها و الله سبحانه وتعالى يريد أن يصور لنا أن صوت الرعد عنيف جدا وأنهم لذلك لا يكتفون بوضع أنملة الأصبع أو طرفه لمنع صوت الرعد ولكنهم يحاولون أن يدخلوا كل الأصابع فى آذانهم لأن الصوت عال جدا يجعل الإنسان يبالغ فى محاولة منعه حتى أنه لو استطاع أن يضع أصبعه كله فى أذنه لفعل والله سبحانه وتعالى يقول ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم ﴾ ومعنى ذلك أن الذى يفعل جماعة وليس شخصا واحدا وكأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا إن هذا المثل ينطبق على كل منافق أو على جماعة المنافقين على مر العصور وليس على منافق أو عدد معين من المنافقين.

ولنا أن نسأل كيف يحدث ذلك إن الأمر للجماعة يكون عادة لما يقوم به كل فرد

فيهم فإذا كنا مسافرين وقلنااركبوا سيارتكم فمعنى ذلك أن يتجه كل راكب إلى المكان المخصص فى السيارة التى ستحمله فمعنى قول الله تعالى: ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم ﴾ [البقرة: ١٩] أن كل واحد من المنافقين يضع أصبعيه فى أذنيه وذلك حذر الموت ونحن نعرف أيضاً أن الرعد يصاحبه برق وصواعق وأن الصواعق تنزل خلالها شحنات كهربائية قد تحرق أو تقتل والمنافق يعرف أن العاصفة التى فيها رعد وبرق قد تصدر عنها صواعق تسبب الموت.

ومعنى ذلك أن الإنسان يجب ألا يظن أن استقبال الخير يأتى مجردا فإن استقبال الخير يأتى ومعه التحمل هذا لابد فى قوانين الدنيا فأنت إذا أردت أن تعمل أكثر فإن عليك أن تكسب أكثر وهذا العمل يقتضى منك تحملا حتى تصل إلى ما تريد من الخير ولكن المنافقين لا يريدون ذلك فهم يريدون الخير فقط دون تحمل مشاقة ولذلك فالمنافق يريد بخداعه للمؤمنين أن يأخذ عاجل النفع من دون أن يتحمل شيئاً وهو يريد أن يتظاهر بلسانه أنه مع المؤمنين ليكون له نصيب فيما يجريه الله على أيديهم من خير وفى الوقت نفسه فهو مع الكافرين حتى لا يتحمل ما يتحمله المؤمنون من مشقة إيمانية فى سبيل دعوتهم ومن إيذاء الكفار لهم وفى الوقت نفسه فهو لا يريد أن يحمل نفسه على المنهج الإيمانى بما يحمله من مشقة للنفس فى تقييد شهواتها، والمنافق قصير النظر مفتون بالمزايا وغير قادر على تحمل المسئولية.

لذلك فالمنافقون فى أول عهد الإسلام لم يستطع واحد منهم أن يصبر على ما تضعه التكاليف الإيمانية على النفس من قيود وما يضعه المنهج الإيمانى من شدة يلقاها المسلمون من أعدائهم كل ذلك تحمله المؤمنون وحدهم ورأوا فى المطر خيره وهو الماء الذى ينزل من السماء ويسقى الزرع و الحيوان و النبات ويشرب منه الإنسان، ذلك الخير الذى يدوم أما البرق والرعد و الصواعق فهى ظاهرة وقتية لا تبقى إلا فترة بسيطة فإذا تحملها الإنسان بشجاعة مرت وتركت له الخير وهو الماء أما إذا كان الإيمان فى النفس ضعيفا فإنه فى هذه الحالة ترهبه هذه الظواهر الوقتية فيهرب من المنهج كله تاركا خيره وهو الماء.

والله سبحانه وتعالى يريد بهذا المثل أن يقرب إلى أذهاننا صورة المنافق الذى يخشى ضياع الدنيا وترهبه أى شدة وقتية فيجرى تاركا الخير الآجل الباقى وكان يجب على الإنسان أن يصبر على أى شدة أو أى ابتلاء ليصل إلى الخير الآجل.

وهنا لابد أن نعرف أن المؤمن يختلف عن المنافق فهو يأخذ الأمور الصعبة مأخذ الجد ويزيح ألوان الشرور ليستخرج منها الخير، المؤمن قد يتعرض للابتلاء و الشدة ويصبر أمام هذا الابتلاء وهذه الشدة، أما المنافق الذى يبتغى من إظهار الإيمان أن يستمتع بخيرات المؤمنين وفى الوقت نفسه يبطن الكفر ليأمن شر الكفار هو كصاحب المطر الذى يريد أن يأخذ الماء ويهرب من الرعد و الصواعق.

والله سبحانه وتعالى يضع دائماً المنافقين مع الكفار ويعتبرهم كما قلنا أشد خطرا من الكفار ذلك أن الله يقول: ﴿ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٩].

أى إنه سبحانه وتعالى محيط بما فى نفوسهم وما يخفونه عن الناس فهو يعلمه ومحيط بهم إحاطة قدرة فهو يتركهم فى الدنيا ينالون ثمن نفاقهم من حقوق المسلمين وهنا يكون العذاب الأول ثم يكون العذاب الكبير في الآخرة حين يستقرون فى الدرك الأسفل من النار.

هنا نصل إلى الحكمة الإلهية من المثل، إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا إن الإسلام ليس فقط نطقا بالشهادتين ولكن الإسلام منهج يختبر به الخالق عباده وهذا الاختبار هو ما تظهره التكاليف الإيمانية و المحن و النعم، فالنعمة ابتلاء تماما كالمحنة لأن الله حين ينعم على عبده يختبره هل سيشكر أم سيكفر فإذا استخدم النعمة فيما يرضى الله وفيما أمر به الله فقد شكر وإذا استخدمها فى الإفساد فى الأرض وفيما يغضب الله فقد كفر بالنعمة والمحنة إذا صبر عليها فقد فاز وإذا لم يتحملها وضاق بها قادته إلى المعصية وهكذا تعرف أن الابتلاءات هى لتمييز المؤمن من المنافق والله يريد أن يخبرنا بأن المنافق لا يريد أن يتحمل تكليفا وإنما يريد أن يحصل على ميزات فقط ولذلك فقد وصفهم الله سبحانه وتعالى فى الجزء الأول من المثل بأنهم كالذى استوقد نارا ولكنه فقد القدرة على الإبصار بهدى النور رغم أنه لم يفقد بصره لأن النفاق أعمى قلوبهم وسد أسماعهم ووضع غشاوة على أبصارهم.

ثم يأتى الجزء الثانى من المثل مكملا للصورة: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ [البقرة: ١٩].

إن هؤلاء المنافقين الذين يحيطون بالمؤمنين ويظهرون الإيمان وهم يبطنون الكفر إنما يريدون بذلك فائدة دنيوية وهم يريدون أن يحصلوا بدون وجه حق على خير مما يصيب المؤمنين أو مما يملكونه وهم بهذا قد دخلوا مدخلا إيمانيا بدعوى أنهم آمنوا أو يريدون أن يؤمنوا ومن هذا المدخل الإيماني ومن جلوسهم مع المؤمنين رأوا نور الله وكان لابد فى هذه الحالة أن إيمانهم يرى على ضوء ذلك الهدى ولكن الإيمان فى القلب ليس سليما ولذلك فإن القلب لا يستقبل والنور لا يصل فهم رغم وجودهم فى مجال الإيمان وجلوسهم وسط النور الإيمانى فإنهم لا يرون شيئا لأن الله سبحانه وتعالى قد ذهب بنورهم، وهم مع أنهم يجلسون فى مجال الإيمان الذى يشع عليهم نور الله سبحانه وتعالى فإنهم فى ظلمات لا يبصرون شيئا من هذا النور وهم رغم جلوسهم فى مواكب الإيمان لا يسمعون كلام الله فهم صم لا يصل هذا الكلام إلى ذاتهم فيعرفونه ورغم أنهم يحضرون مجالس الإيمان فهم لا يستطيعون أن يتحدثوا حديث الإيمان لأنهم لا يعرفون هذا الحديث فقلوبهم لم تستوعبه.

وهم فى هذه الحالة كمثل قوم نزل عليهم مطر غزير من السماء أي نزل عليهم خير عميم من الله سبحانه وتعالى وصاحب هذا المطر برق ورعد ولكنهم لقصر نظرهم لم يلتفتوا إلى الخير بل خافوا من المصاعب الوقتية التى تصاحبه فأصبح همهم هو كيف يهربون من هذا الخير العميم خوفا من أن تصيبهم صاعقة فتقتلهم أو أى أذى أو شدة فتزعجهم.

ولو أنهم فطنوا لعرفوا أن الزمن الذى يستغرقه الرعد و البرق قليل بينما النفع الذى يجلبه المطر دائم ولاستفادوا من هذا النفع الدائم بدلا من أن يفروا من شدة وقتية تواجههم، ولكنهم فى بحثهم عن الخير العاجل ولأنهم تظاهروا بالإيمان بدون حقيقة أو صدق وحتى يصلوا إلى النفع العاجل فإنهم لا قوة لهم ولا عزم لأنهم لا إيمان لهم، وهم يحسبون كل صيحة عليهم، وهم أول من يفر من أى قتال.

الله سبحانه وتعالى لم يضرب للكافرين الأمثال فقط على ما هم فيه من ضلالة ليقرب هذه المعانى إلى عقول المؤمنين بل تحدى الله سبحانه وتعالى بدقة الخلق وتحدى بقدرة الخلق ففى سورة البقرة قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

عندما نزلت هذه الآية قال أهل الكفر والنفاق كيف يضرب الله المثل فى القرآن بالبعوض والذباب والعنكبوت تلك المخلوقات الضعيفة التافهة؛ ولكن قصر نظر هؤلاء المنافقين هو الذى صور لهم أن البعوض أو الذباب أو العنكبوت هى كائنات ضعيفة واهية بالقياس الحجمى بالنسبة للإنسان فالذبابة أو البعوضة أو العنكبوت حجما وقوة إذا قيست بالإنسان فهى لا تساوى شيئا، ولكن الله سبحانه وتعالى ضرب الأمثال بهذه الكائنات ليصور العلاقة بين أضعف المخلوقات وبين مقدرة الخالق وبين ادعاء المشركين بأن الله له شريك في الكون.

أن الله لا يستحى أن يضرب مثلا بعوضة فما فوقها يتساءل بعض الناس كيف يقول الحق سبحانه وتعالى إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا، نقول إن الله سبحانه وتعالى حين يصف نفسه بصفة أو يسمى نفسه أسماء كالرحمن والرحيم والعزيز والقدير فهذه نسميها أسماء الله ولكن حين يسند الله سبحانه وتعالى إلى ذاته فعلا فإننا لا نشتق من هذا الفعل أو تلك الأفعال أسماء لله أو صفات لله، مثال ذلك قوله تعالى فى سورة الأنفال:

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

والحق سبحانه وتعالى هنا يمثل صراعا بين الكفار وبين رسول الله، فالكفار يريدون أن يمكروا بالرسول بتدبير أمور كلها سوء وأذى، وهم يحسبون فى ذلك أنهم فى سريتهم

وحذرهم وهم يدبرون خطط الشر والإيذاء، يحسبون أن الله غير محيط بهم ولكن قدرة الله محيطة بهم ولذلك فهى تعد لهم من الأحداث ما لا يعرفونه وما يفسد خططهم تماما ويردها إليهم فلا يحققون شيئاً وتدبير الله سبحانه وتعالى هو الغالب لأن الله هو القوى العليم، هنا لا نستطيع أن نقول إن خير الماكرين اسم من أسماء الله سبحانه وتعالى لأن الفعل وهو المكر منسوب إلى الله سبحانه وتعالى فى قوله خير الماكرين وإنما يريد أن يقول لنا إنه قادر على حماية رسُول الله من مكر الكافرين وأن تدبيره أعلى من تدبيرهم، وأمره هو النافذ عليهم سواء أرادوا أم لم يريدوا ويسمى ذلك فى اللغة مشاكلة.

إذا سأل سائل كيف ينسب إلى الله القول بأنه لا يستحيى أن يضرب مثلاً والإجابة هى أن الله يرد على الكفار الذين قالوا ألا يستحى رب محمد أن يضرب مثلا بكذا وكذا وفى تلك لفتة إلى أن علم الله أعلى من علمهم وأن ما يعتبرونه هم شيئاً تافهاً لا يستحق من الله تعالى أن يضرب مثلاً به إنما فى الحقيقة فيه قدرة وحكمة تجعل الله يضرب لنا هذا المثل.

والاستحياء هو تغيير فى البنية و السلوك عند الخوف من القيام بعمل يعيب الإنسان أن يفعله أو لا يريد أن يراه أحد وهو يفعله ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد وصف الاستحياء كفعل إنسانى فى سلوك ابنة شعيب عندما ذهبت إلى موسى عليه السلام تطلب منه أن يأتى ليقابل أباها، فيقول الحق تبارك وتعالى فى سورة القصص: ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٢٥].

إذن.. فذهاب ابنة شعيب إلى موسى وأن تكلمه أمام الناس وهو غريب عنها مسألة اعتقدت أنها تعيبها أو على الأقل غير محبب إلى نفسها أن تفعلها أمام الناس ولكنها مأمورة من والدها أن تفعل ذلك ولذلك فهى تفعله وهى كارهة فالاستحياء أمر فطرى يعترى الإنسان عند خوفه من أن يلام من فعل قام به، وهو فى الغالب صراع بين ملكات النفس البشرية، فهناك ملكة تدعو النفس البشرية إلى المعصية وتأتى أخرى وتحاول أن تمنعها وهكذا نعرف أن الاستحياء هو خوف من فعل غير محمود وهو بمعناه لا ينطبق إلا على السلوك البشرى.

أما قول الله سبحانه وتعالى لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فذلك ليس معناه أنه تغيير فطرى أو خوف من فعل شىء يعاب عليه و الله جل وعلا منزه عن ذلك تمام التنزيه المطلق و الله يغير ولا يتغير ويفعل ولا ينفعل ولكن هذا بيان لجهل الكافرين الذين تساءلوا عن استحياء الخالق أن يضرب مثل هذا المثل، ذلك أنهم تساءلوا عن شىء يدل على عدم العلم وعدم القدرة على الفهم، فهم كما قلنا قد نظروا إلى المظهر وهو الحجم ونظروا إلى الضعف الظاهرى ولكنهم لم يفطنوا إلى قدرة الخالق فى الدقة

وفي الإعجاز ولذلك فإنهم عندما قالوا وهم لا يعلمون ألا يستحى الله رد الله عليهم بأنه لو علمتم القدرة والحكمة وأوتيتم من العلم لعرفتم أن هذا المثل لابد أن يضربه الله سبحانه وتعالى وأن هذا المثل لا يرمز إلى شيء أو لا يبين شيئاً يستحى منه أحد بل إن قدرة الله لابد أن يضربها لكم لتفهموها ومعنى يضرب الله مثلاً أن الله يريد لهذا المثل أن يشيع بين البشر . . إذن الله سبحانه وتعالى يريد لهذا المثل أن يتداول بين الناس ويريد أن يقول للكفار إنه لا يوجد فى هذا المثل ما يجعل من يضربه يستحى منه بل توجد فيه من مظاهر القوة و القدرة ما لابد أن يبين للناس .

ثم يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [البقرة : ٢٦] إذا أخذنا البعوضة على أنها قليلة الحجم بالنسبة للإنسان فإن فى هذا عظمة للخالق وإذا أخذناها على أساس ضعف قوتها بالنسبة لقوة الإنسان فإن فى هذا قوة للخالق ولنتحدث نقطة نقطة .

النقطة الأولى هى قلة حجم البعوضة بالنسبة للإنسان بل إن الله سبحانه وتعالى قال : ﴿ فَمَا فَوْقَهَا ﴾ أى ما هو أصغر منها . . نقول إذا تأملنا التقدم العلمى الذى تم فى العالم نجد أن هذا التقدم و الرقى يسير نحو الدقة ففى أول الأمر مثلا كانت الساعة تصنع كبيرة ضخمة تحتاج إلى مساحة . . الآن هناك ساعة توضع فى مكان فص الخاتم أو أقل من ذلك وقديماً كان الراديو مثلا يحتل مساحة كبيرة أما الآن فقد أصبح حجمه أقل من حجم الكف والسيارة مثلا كانت كبيرة الحجم قليلة السعة وهى الآن تتطور والآلات الحاسبة كانت فى الماضى لابد أن توضع على المكتب لا يستطيع أحد أن يحملها من مكان إلى آخر لكبر حجمها فأصبحت الآن توضع فى الجيب وتقوم بعمليات متعددة وهكذا كلما ارتقى العلم وتقدمت البشرية مالت الأشياء إلى الدقة وصغر الحجم بل إنه فى الماضى مثلاً كان لابد للطائرات أن تحمل أطنانا من القنابل حتى تستطيع أن تدمر حيا من الأحياء وكان لابد أن تشترك فى ذلك عشرون أو ثلاثون طائرة لأن حجم القنابل الذى يحمل كان كبيرا جدا أما الآن فإن طائرة واحدة تحمل قنبلة هيدروجينية تستطيع أن تدمر مدينة بأكملها إذن الدقة أو صغر الحجم هو من علامات التقدم العلمى أو الرقى فى العلم .

والله سبحانه وتعالى يريد أن يقول للكافرين أنتم التفتم إلى صغر حجم البعوضة بالنسبة لحجم الإنسان فاحتقرتموها ولكنكم لم تلتفتوا إلى دقة الخلق فإن هذه البعوضة بحجمها المتناهى فى الصغر تحمل معها كل أجهزة الحياة من عيون ترى وأجنحة تطير وأجهزة جنسية لحفظ النوع وجهاز هضمى للطعام وإخراج الفضلات وكل مقومات الحياة . . لم تلتفتوا إلى دقة الصنع وعظمة الخالق الذى وضع كل سبل الحياة فى هذه المساحة الصغيرة ، ولو أنكم التفتم إلى هذا لعرفتم الحكمة من المثل ولأدركتم أن هذه البعوضة الصغيرة التى تستهينون بها هى مثل حى وضعه الله أمامكم على دقة الخلق وقدرة الخالق فى أن يجمع كل تلك الأجهزة اللازمة لحياة هذا الكائن الحى فى هذا الحجم

الصغير.. ولكنها سطحية التفكير وعدم القدرة على التمييز فى عقول الكافرين.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [البقرة: ٢٦]. أى: إن الله لا يضرب مثلا بالبعوضة فقط المتناهية الصغر فى الحجم بل إنه سبحانه وتعالى لم تقف قدرته عند خلق البعوضة فى هذا الحجم الصغير بل هناك ما هو أصغر من ذلك بكثير خلقه الله، ولذلك فليس هنا نهاية بل القدرة ممتدة إلى ماهو أصغر وأصغر وقد تقدم بنا العلم فاستطعنا أن نرى أشياء لم نكن نراها لدقة حجمها، ووجدنا أن هذه أشياء كلما صغر حجمها زادت قوتها وقدرتها فالجراثيم مثلا على دقة حجمها تستطيع أن تقتل أقوى الكائنات الحية وتهلكها بدون أن تستطيع النجاة منها بل إن أخطر الجراثيم خطرا على الحياة البشرية هو الذى لا نستطيع أن نراه حتى الآن لدقة حجمه فلا يظهر تحت الميكروسكوب الإلكترونى وهذا لا يستطيع العلماء أن يقاوموه أو أن يجدوا له علاجا لأنهم لا يرونه ومن ثم لا يستطيعون إجراء التجارب العلمية عليه لدرء خطره ولذلك يصبح هذا المخلوق المتناهى فى الدقة هو أكثر خطرا على الإنسان من الجراثيم التى ترى ولا يستطيع أحد أن يعرف الداء ليجد له الدواء ولذلك فإن المشكلة التى تحير العلماء فى كثير من الأمراض هى التى لا يستطيعون فيها عزل الميكروب المسبب للمرض حتى يروه ويدرسوه ويفحصوه.

بل إن من أكثر الأشياء دقة وربما فتكا هى الأسلحة التى لا ترى كاستخدام أشعة الليزر مثلاً وهذه هى القادرة على تدمير الأقمار الصناعية أو إصابتها فى الفضاء للدقة المتناهية وكذلك الأسلحة الكمياوية التى تنتشر فى الجو فتقتل عشرات الألوف فى لحظات مع أن أحدا لا يراها وربما لا يميز الإنسان رائحتها.

إذن.. الدقة فى الخلق هى إعجاز من الله سبحانه وتعالى لابد أن ننتبه له وكلما زادت الدقة زادت معرفتنا لقدرة الخالق الذى استطاع أن يخلق فى هذا الحيز الصغير الذى لا يرى بالعين المجردة استطاع أن يخلق فيه حياة تتكاثر واستطاع أن يخلق فيه قوة تستطيع أن تفنى ما هو أكبر منا بملايين المرات وما هو أقدر منا ظاهريا ولو أن الكفار كان لديهم شىء من العلم أو حتى من الفهم لتنبهوا لهذه الحقيقة ولعرفوا أن الله سبحانه وتعالى حين ضرب هذا المثل ببعوضة فما فوقها فإنه يلفتنا إلى القدرة الإلهية فى الخلق ويلفتنا إلى أن ما قد لا نراه بأعيننا قد يكون أشد قوة وأخطر مما نرى. على أنه حتى فى البعوضة نفسها فإن ذلك المخلوق الذى قال عنه الكفار ألا يستحيى رب محمد أن يضرب مثلا ببعوضة أن يعرفوا من ظاهر الحياة الدنيا أنهم عاجزون أمام هذه البعوضة الصغيرة الضعيفة التى يحتقرونها فهى تستطيع أن تأخذ جزءا من دمائهم بدون أن يستطيعوا أن يردوه أو يعيدوه مرة أخرى إلى أجسادهم وهى تستطيع أن تنقل إليهم الأمراض التى قد تقتلهم ولا يستطيعون منها النجاة ولذلك فإن ضرب المثل بالبعوضة فيه حكمة بالغة.

ثم يقول الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة: ٢٦].

أى: إن الذين آمنوا لتفكرهم وتدبرهم لآيات الله يعرفون أن ما قاله سبحانه وتعالى هو الحق وحتى لو لم يصلوا إلى العلم الأرضى فى هذا المثل فيكفى أن الله سبحانه وتعالى قد ضرب هذا المثل ليكون حقا فالمؤمن يستقبل كلام الله سبحانه وتعالى من منطق إيمانى مادام الله قد قال فيكفى هذا، فإذا ظهرت الحكمة بعد ذلك أو كشف الله سبحانه وتعالى عن الحكمة يكون ذلك تثبيتا للإيمان وإذا شاء الله أن يبقى الحكمة فى علمه هو فيكفى حيثية عند الإنسان المؤمن أن الله قد قال ولذلك فإن كلام الله يزيد المؤمنين إيمانا وتصديقا، أما الكافرون الذين لا يؤمنون بالله فإنهم يأخذون هذا الكلام على ظاهره وعندما تفشل عقولهم أو لا تستطيع الوصول إلى الفكر السليم وراء المثل فإنهم يقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً ولو أنهم تفكروا وتدبروا بدون بحث علمى أو تقدم تكنولوجى فى كيف أن الله سبحانه وتعالى خلق فى تفكيرهم هو أن الإنسان كبير الحجم والبعوضة صغيرة الحجم ومن هنا فإن ضرب الله سبحانه وتعالى المثل بالبعوضة هو شىء فى رأيهم لا يصح ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦].

أى إن الله سبحانه وتعالى بهذا المثل يضل به كثيرا من الناس من الكافرين والمنافقين الذي لا يأخذون من الحياة الدنيا إلا ظاهرها دونما عمق أو تعمق وهم يريدون شيئاً سهلاً وميسورا من دون أن يتعبوا أنفسهم حتى فى التفكير أما أولئك المؤمنون الذين يتدبرون القرآن الكريم فهذا المثل يهدى كثيرا منهم لأنهم يتدبرون الكلام ويصلون إلى المعنى المقصود من دقة الخلق.

ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦].

أى إن أولئك الذين تصيبهم الضلالة هم الفاسقون الخارجون عن منهج الله الذين امتلأت أفكارهم وعقولهم بتفاهات الظاهر بدون أن يتدبروا شيئاً من حكمة الخلق.

نأتى بعد ذلك إلى مثل آخر الذى تحدى به الله سبحانه وتعالى حين قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝ ﴾ [الحج].

وفى هذا المثل تحد للبشرية كلها ذلك أن الله سبحانه وتعالى يقول لهم إنكم وما تدعون من دون الله من آلهة أو من علم أرضى لن تخلقوا الذباب الذى تعتبرونه مخلوقاً تافهاً ولو اجتمعتم جميعا ولقد كان هذا المثل فى الماضى تحديا بأن ما يشرك به الناس من أصنام وآلهة مزيفة عاجزة عن أن تخلق الحياة فى أتفه الأشياء بالنسبة لنظرهم على الأقل فهى لا تستطيع أن تهب الحياة لأحد ولو لذبابة ثم يتقدم الزمن وتتقدم الحضارات و العلوم والاختراعات ويصل الإنسان إلى القمر وقد يصل إلى المريخ والزهرة ويأتى العلم كل يوم باختراع مذهل لا تصدقه العقول وتسمع من يقول لك لقد انتهى عصر الإيمان وبدأ عصر

العلم وترد أنت عليهم بهذا المثل إن الله قد تحداكم أن تخلقوا الحياة ولم يتحداكم بأن تخلقوا كونا مثل الكون الذى خلقه الله سبحانه وتعالى ولا شمسا تضىء ملايين السنين ولا نجوما ولا قمرا كلها معلقة بالفضاء لا تمسكها إلا قدرة الله سبحانه وتعالى ولم يتحداكم بأن تخلقوا أرضا مثل الكرة الأرضية التى تعيشون عليها ولا نعما مثل التى ملأ الله بها الأرض من ماء وهواء وتربة خصبة تنبت الزرع ولا تحداكم أن تخلقوا إنسانا مثل ملايين البشر الذين خلقهم الله سبحانه وتعالى ولكنه تحداكم أن تخلقوا ذبابة وتحداكم أن تجتمعوا من أجل ذلك وقال إنكم حتى لو اجتمعتم لن تفلحوا وكأن التحدى للناس جميعا على اختلافهم.

ولكى يبين الله سبحانه وتعالى أنه هو الذى يعطى العلم للإنسان وهو الذى يكشف له عن أسرار وضعها فى كونه فقد كشف لكم الله عن أسرار جعلتكم قادرين على غزو الفضاء وعلى السير فوق القمر وعلى اكتشاف خصائص مذهلة فى الكون ولكنه حجب عنكم العلم الذى تحداكم فيه وهو خلق المادة الحية أو خلق ذبابة.

وقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ﴾ وكلام الله متعبد بتلاوته لا يتغير ولا يتبدل إلى يوم القيامة معناه أنه لابد أن يُستمع لهذا المثل فى كل عصر وحتى قيام الساعة وهو منطق حقيقى فى كل العصور أى أنه يقينا لن يأتى عصر يستطيع الإنسان أن يخلق فيه ذبابة مهما تقدم به العلم ومهما ارتقى ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى ذلك فيقول: ﴿ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ﴾ ثم يقول الله إن الذين تدعون من دون الله.. وهكذا كان التحدى من الله سبحانه وتعالى على إطلاقه أى الذين تدعون من دون الله من آلهة وعلم وعلماء وأصحاب قدرة وأصحاب نفوذ وشياطين وجان وكل من تستطيعون أن تدعوه من دون الله قوموا بدعوتهم واجمعوهم جميعا وقولوا لهم: تعالوا واخلقوا لنا ذبابة واحدة فإن استطاعوا يكن لكم العذر فى دعوتهم ولكن الله يقول لنا إنهم غير مستطيعين حتى الآن وحتى هذه اللحظة لم يستطع علماء الدنيا كلها ولا معامل الدنيا كلها ولا أبحاث الدنيا كلها أن تخلق جناح ذبابة أو حتى خلية للمادة الحية بحيث يستطيع أى مكابر أو جاحد أن يقول هذا من خلق الإنسان وفى هذه الآية إعجاز كبير لأن الله سبحانه وتعالى كان فى علمه أنه سيأتى بعض الناس بعد ألوف السنين ليقولوا انتهى عصر الإيمان وبدأ عصر العلم فرد الله سبحانه وتعالى عليهم قبل أن يقولوها وقال لهم إذا كان عصر الإيمان قد انتهى وعصر العلم قد بدأ فالله سبحانه وتعالى هو الذى خلق كل هذا الكون بما فيه ومن فيه ولا يريد منكم إلا أن تخلقوا ذبابة واحدة لتثبتوا دعواكم وحتى تقدموها حيثية لهذا الادعاء و الله يقول لكم قبل أن تقدموا على ذلك إنكم لن تقدروا. أى إنه يبلغكم بالنتيجة قبل أن تبدأوا لتعلموا أن الله بكل شىء عليم.

ثم يمضى الله سبحانه وتعالى ليزيد فى تحقير الكافرين والمنافقين ويقول لهم ربما كانت مسألة الذبابة هذه صعبة عليكم ولذلك فسأيسرها لكم إذا أخذ الذباب منكم شيئاً

فاستعيدوه منه إذا علق بأرجل الذباب جزء من طعامكم فاستعيدوه منه مرة أخرى ثم يزيد الله فى التحدى فيقول: وحتى هذا لن تستطيعوه ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج: ٧٣]؛ أى إن الله سبحانه وتعالى نزل بالتحدى من مرحلة الخلق إلى مرحلة استعادة ما يسلبه الذباب وقال: وحتى هذه لن تستطيعوها.

ثم قال الله تعالى: ﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج: ٧٣] أى إن ما طلبته منكم هو ضعيف جدا ومع ذلك فإنكم لا تستطيعون مقابلة هذا التحدى رغم ضعفه.

﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٧٤].

أى: إن البشر كلهم لا يقدرون قدرة الله حق قدرها فالله قوى لا حول ولا قوة لغيره عزيز يفعل ما يشاء ولا يوجد من يحاسبه على فعله أى إنه كان يكفى بنظرة واحدة لقدرة الله فى كونه أن تجعلكم تعرفون هذه القدرة وترونها وتسلمون بها، على أن هناك مثلاً آخر ضربه الله سبحانه وتعالى بالنسبة لمذهبات النعمة وحذرنا ألا نقع فيها؛ ذلك المثل هو إنكار حق الفقير واليتيم و المسكين و المحتاج فى النعمة و محاولة أخذ حقوقهم من الزكاة والصدقة وغيرهما مما فرض الله.

فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الروم: ٣٨].

وبعض الناس يعتقدون أن المال يزيد بأكل حق اليتيم والفقير والمسكين وأن الصدقة تنقص المال والزكاة تذهب بجزء منه والحقيقة غير ذلك تماما فالصدقة والزكاة تطهران المال وتحفظانه وتزيدانه بركة فتبقى النعمة وتستمر والمال هو مال الله آتانا إياه ليرى ماذا سنفعل وهل سنشكر على النعمة أم سنبغى ونطغى ونفسد فى الأرض والله جعل فى المال حقا للضعفاء والفقراء فلا آتى أنا وأسلب هذا الحق لأن الله قادر على أن يذهب بالمال كله.

ولنقرأ فى سورة القلم: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣) ﴾ [القلم].

فهو يضرب لنا مثلا بأصحاب الجنة.. مجموعة من الناس يملكون بستانا كبيرا أتى ثمره وحصاده وهم فى هذا البستان الذى ملأه الله لهم بالنعمة يريدون أن يأكلوا حق اليتيم والفقير والمسكين فى هذه النعم فلا يعطوه حقه ولذلك فإنهم اتفقوا على أنهم يذهبون فى الصباح الباكر ليحصدوا هذه النعم قبل أن يستيقظ الناس ولا يسمحوا ليتيم أو فقير بأن يقترب من جنتهم وفى الصباح الباكر وقبل طلوع الشمس يوقظ بعضهم بعضا ويتسللون واحدا بعد

الآخر إلى الجنة ليأخذوا ثمرها حينئذ وحين يصلون يجدون أن الثمر كله قد تلف و الرزق كله احترق وأصبح هشيما ذلك أنه وهم نائمون طاف عليها طائف من الله فأصبح ثمرها كالصريم أو الشيء المحترق المهشم أى لا تصلح للغذاء الآدمى جفت وسقطت وتلفت فأصبحت لا تصلح لشيء حينئذ اعتقد أصحاب هذه الجنة أنهم قد ضلوا الطريق إليها وأنهم لابد دخلوا مكانا آخر فلقد كانت هذه الجنة حتى ساعات قليلة مليئة بالثمار الناضجة الطازجة ولكنهم تأكدوا من أنهم فعلا فى جنتهم التى يملكونها وحينئذ تنبهوا أنهم قد نسوا الله ونسوا قدرته وأنهم في ظلمهم للضعفاء لم يتذكروا أن الله مع هؤلاء الضعفاء وأنه هو ناصرهم فأفاقوا وقالوا: إنا لضالون بل نحن محرومون من نعم الله.

وفى اللحظة التى أفاقوا فيها وتذكروا قدرة الله بدأوا يسبحونه ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ والأوسط هنا إشارة إلى أن خير الأمور عند الله الوسط وهو بين الإسراف والتقتير قال أوسطهم لولا تسبحون الله وتعودون إليه ثم أخذوا يلوم بعضهم البعض وكل واحد منهم يحاول أن يحمل الآخر تبعة ما حدث واعترفوا بأنهم كانوا طاغين ومتجبرين فى حق المحتاج واليتيم.

وفى هذه اللحظة تذكروا أن الله سبحانه وتعالى يفتح باب التوبة ويبدل العسر يسرا وقالوا عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها.

ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ﴾ فى الدنيا إن من ينسى الله ويحرم الفقير والمسكين من حقه يحرمه الله من نعمه.

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى بين للإنسان المؤمن، فالقرآن نزل ليبين لنا مهلكات النعم فى الدنيا أو مذهبات النعم وقال: أيها المؤمنون إذا أردتم أن تبقى نعم الله عليكم فتذكروا دائماً أن النعمة من الله سبحانه وتعالى فانسبوا الفضل لله دائماً تبق النعمة، وإياكم أن تنسبوا الفضل لأنفسكم وتنكروا فضل الله وتظنوا أن هذه النعم دائمة لكم بقدراتكم أنتم فإن الله سبحانه وتعالى قادر - وهو الذى منحها - أن يذهبها، ولذلك أعطانا مثل صاحب الجنتين ومثل قارون أحدهما لديه نعمة عاجلة والآخر لديه نعمة مختزنة وكلاهما أنكر قدرة الله ونسب النعمة لنفسه.

المثل الآخر لمذهبات النعمة هم أصحاب الجنة الذين أنكروا حق الضعيف والمسكين والفقير فأراد الله أن يذكرهم أنهم إن نسوا حق أولئك الذين أوصى الله بهم فإن الله ينساهم ويذهب عنهم النعمة ولذلك فأول الأشياء فى بقاء النعمة أن تنسب الفضل لله سبحانه وتعالى ولا تنكرها وأن تخرج حق من أوصى بهم الله وتتذكر أنهم إذا كانوا ضعفاء لا يقدرون فإن الله سبحانه وتعالى الذى أوصى بهم هو حاميهم وهو معهم فأول شيء تفعله هو أن تخرج حق الضعفاء فى النعمة.

الأمثال فى القرآن.. والتوحيد

قضية الشرك بالله فى الأصل هى قضية محسومة، فالله سبحانه وتعالى هو الذى خلق وأوجد وقد أخبرنا بذلك ولو أن هناك آلهة أخرى لقالت وردت، وكون الله سبحانه وتعالى هو الذى خلق وهو الذى أوجد وهو الذى أبلغنا.. تكون القضية قدحسمت لله تعالى تماما، ولكن بعض الناس تأبى عقولهم إلا أن يشوهوا هذه الحقيقة، وبعضهم يتخذ من البشر آلهة، وبعضهم تخلق له مخاوفه آلهة، وبعضهم يغريه الشيطان؛ حتى إذا كفر تبرأ منه، واقرأ قوله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الحشر: ١٦]. إذن.. كل من يتخذونهم أولياء من دون الله إنما يتخذونهم وهما وإنما يعبدون خوفا وإنما يخترعون خيالاً.

والله سبحانه وتعالى يناقش هذه القضية فى القرآن الكريم فيضرب لنا مثلا فى سورة الزمر: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٢٩].

الله سبحانه وتعالى يريد أن يوحد الناس، والناس قد اخترعت آلهة متعددة فى غيبة من العقل حتى أن بعضهم صنع آلهة بنفسه ثم عبدها وفى ذلك تحقير للعقل البشرى ويأتى الله سبحانه وتعالى برحمته ويريد أن يلفتهم إلى عبادة الإله الواحد وهنا يأتى لهم بمثل من واقع حياتهم فيقول الله سبحانه وتعالى إننى سأضرب لكم مثلا للعبودية والسيادة من واقع حياتكم.

هب أن عبدا مملوكا لعدد من الأسياد، ومعنى أنهم متعددون أن لكل منهم سلطات ويراد من هذا العبد أن يلبى رغباتهم وفوق أنهم متعددون فإنهم مختلفون لا يتفقون على رأى بل لكل واحد منهم رأى مخالف للآخر، فهذا يعطى أمرا وذاك يعطى أمرا مضادا والثالث له أمر يخالف الأمرين السابقين وبينهم تشاكس وتنافر، يريد الله سبحانه وتعالى أن يعطى هذه الصورة الغيبية فى هذه الصورة الحسية المشاهدة فى كل يوم فإن لم يكن يراها على نفسه فإنه يراها على غيره، ويسأل الله عباده أيرتاح هذا العبد الذى يأتمر من أسياد متعددين مختلفين، أيحصل على الراحة، أيستطيع أن يرضيهم جميعا؟ وإذا كان ذلك مستحيلا فهل يستطيع أن يرضى بعضهم من دون أن يخاف انتقام الآخرين وغضبهم عليه وهل هذا العبد هو الذى يصل إلى الحياة المريحة أم ذلك الذى يأتمر بأمر سيد واحد فهو عنده أمر واحد فقط يعطيه ولا يحدث خلاف لأن الأمر واحد. يعطينا الله سبحانه وتعالى

هذه الصورة ويقول لنا: أليس من الأسهل والأسلم لكم أن تطيعوا إلها واحدا وأن تعبدوا إلها واحدا لقد شاءت رحمتى أن تيسر لكم أمر العبادة ولكنكم أنتم تريدون أن تخلقوا لأنفسكم آلهة متعددة أي إنكم تختارون الطريق الصعب غير الميسور غير الحقيقى تتعبون به أنفسكم وتلقون بأيديكم إلى التهلكة بينما اخترت لكم الطريق السهل الميسور.

وهكذا يقرب الله سبحانه وتعالى لنا الصورة فى صورة مادية محسوسة ليظهر لنا غباء هؤلاء الذين يريدون أن يتعبوا أنفسهم فيخترعوا لها اختراعا: آلهة متعددة وعندما تقترب منا الصورة إلى هذه الدرجة نحس بتفاهة فكر وتفاهة حجج أولئك الذين يخترعون آلهة متعددة ليعبدوها.

وفى سورة الروم يضرب الله مثلا ثانيا: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم: ٢٨].

وهنا يضرب الله سبحانه وتعالى مثلا ثانيا ويقول جل جلاله إننى سآخذ هذا المثل هذه المرة من أنفسكم حتى تحسوا به إحساسا مباشرا إننى أرزقكم أموالا وأعطيكم رزقا فى الحياة الدنيا فهل تأتون أنتم فى هذه الأموال وتشركون فيها أحدا غيركم فيما أعطيتكم من رزق؟ إن هذا الرزق من الله هو الذى وهبه لكم هل خرج أحدكم إلى القرية وأحضر عددا من الناس وقال لهم تعالوا فعندى رزق ولنشترك فيه بحيث نصبح كلنا فيه سواء أى نقسمه على بعضنا البعض أم أنكم تخافون على هذا الرزق وتحاولون أن تحموه بكل وسيلة بل إن كل واحد منكم يخاف أن يأخذ الآخر منه شيئاً وإذا كان هذا هو مسلككم مع أنفسكم ألا يكون هو مسلككم نفسه على الأقل مع الله الذى أعطاكم هذا الرزق ومنحكم هذه النعمة ولكنكم - والله وحده هو الوهاب - تأتون بشركاء تشركونهم مع الله فيما رزقكم فتقولون هذا رزق الله وهذا رزق من فلان بل إنكم تنذرون النذور لغير الله فيما رزقكم به الله فيكون نذركم لمن لم ينزل به الله سلطانا ونجد أنواعا غريبة من آلهة وتعاويذ عبر التاريخ وحتى الآن يقال إنها لجلب الرزق مع أن الله سبحانه وتعالى هو الرازق والمنعم، والله بهذا المثل يريد أن يجعله على نفسه فيقول له لقد وهبت لك رزقا فهل أشركت فيه غيرك وهل أدخلت فيه شركاء أم أنك حاولت ألا تشرك فيه أحدا إذن لماذا تريد أن تأتى لله بشركاء وتخلع عليهم صفات الألوهية إذا كان عقلك قد طاش فأنا أحاول أن أعيد لك الحكمة وأن أضرب لك مثلا تحسه فى ذاتك وفى نفسك حتى لا تحتاج إلى مجرد عمق التفكير بل سيكون هذا المثل ظاهرا وبمجرد أن أضربه لك ستحسه وتعرفه.

ثم يضرب الله سبحانه وتعالى الأمثال فيبين أن من يتخذ إلها غير الله فقد أورد نفسه مورد التهلكة فيقول الله سبحانه وتعالى فى سورة العنكبوت:

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤١].

أي: إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يوجه الإنسان إلى أنه لا أحد يرعاه ويعطى له الرزق والحماية إلا الله سبحانه وتعالى، وإلى من يلتجئ؟ ومن الذى يملك له من الله شيئاً؟ لا أحد. ولذلك فإن أولئك الذين يحسبون أنهم عندما يلجأون لغير الله يحققون شيئاً فإنهم واهمون ذلك لأنهم يلجأون إلى شيء ليست له قوة وقدرة.

ولكن هذا القول من الله إخبار عن شيء غيبى عنى لا ألمسه ماديا ولذلك يريد الله أن يثبت الذين آمنوا ويقرب لهم الصورة بأن يضرب مثلا من حياتهم اليومية مثلا يرونه كل ساعة وهو فى كل بيت مثل خيوط العنكبوت يقول لهم انظروا إلى خيوط العنكبوت هذه هل تستطيع أن تحمى أحدا أو توفر الحماية حتى للعنكبوت نفسه إنها أسهل شيء يسقط ويستطيع طفل صغير بأى شيء لين أن يسقط بيت العنكبوت فى ثانية لا يحتاج ذلك إلى قوة من الطفل ولا إلى الشيء الذى يمسك به بحيث يكون صلبا بل إنها مجرد لمسة بأى شيء ويسقط بيت العنكبوت وهو لا يحمى أحدا بل لا يحمى صاحبه وحتى الحشرات التى تحاول أن تلتجئ إليه وهى تظن أن هذا البيت فيه الحماية وإنما تسقط فى شرك نصب لها وتفقد حياتها وهى تظن أنها تحتمى بهذا البيت و تنجو أى إن طريق النجاة الذى تصوره لنا عقولنا بعيدا عن الله هو طريق الهلاك بالنسبة لنا.

هنا لابد أن نتوقف أمام ما يقال وما يشاع عن هذا المثل، فبعض الناس يقول إن خيوط العنكبوت فيها صلابة أو هى قوية على الأقل بالنسبة للحشرات التى تسقط فى بيته، فهذه الحشرات عندما تسقط وتحيط بها خيوط العنكبوت لا تستطيع أن تتخلص منها ذلك لأن الخيط أقوى من قدرة الحشرة نقول لهؤلاء جميعا إن القرآن كتاب لإنسان وهو يخاطب الناس حسب قدراتهم البشرية ومن هنا فإننا لا يجب أن نضع قياسا غير ذلك ونحن نريد أن نفهم معانى القرآن المهم هنا هو بالنسبة لقدرة وقوة الإنسان.

الأمثال.. والأعداد فى القرآن

الأمثال عن الحياة الدنيا فى القرآن تتناول أكثر من جانب، وبعض الناس فى كثير من الأحيان يحاول أن يضع للأمثال أسباباً قد لا تكون هى الحقيقة أو الهدف منها. مثال ذلك ما أثير حول قول الله سبحانه وتعالى فى سورة المدثر: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ (27) لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ (28) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (29) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (30) وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ (31) ﴾ [المدثر].

ولقد قيلت أشياء كثيرة عن رقم ١٩ الذى هو عدد الملائكة ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ وحللوها بالعقل الإلكترونى وخرجوا منها إلى متاهات كثيرة، وتسعة عشر عدد حروف بسم الله الرحمن الرحيم، والله سبحانه وتعالى يضرب هذا المثل ويقول: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾.

حتى نعرف أنها قضية إيمانية وأن المشكلة ليست فى عدد الملائكة سواء كانوا عشرة أو عشرين أو ثلاثين.

السؤال فى العدد هو دائماً دائر فلو قال الله إن عددهم ثلاثة لوجدت من يسأل لماذا ثلاثة؟ وإذا قال إن عددهم أربعة لوجدت من يسأل أربعة لماذا؟ أو خمسة لماذا؟ و السؤال الدائر لا يرد عليه، فالله قد جعل أصحاب النار ملائكة و هذا اختيار الله سبحانه وتعالى و الله جعل عددهم تسعة عشر وهذا اختيار الله وما دام أى عدد سيسأل عن سببه يجب ألا يرد على السؤال لأنه لا يوجد عدد يحسم اختيار الله سبحانه وتعالى.

ولكن الحق أراد بهذا المثل وقفة العقل الإيمانية لأنه لو أن كل شيء يخضع للتعليل العقلى لما كانت هناك وقفات إيمانية ولكانت الدنيا و الآخرة كل منها بكل ما فيها له تعليل عقلى ولكن أمور الحياة الدنيا التى يحتاجها الإنسان فى معيشته هى التى تدخل و تخضع للتعليل العقلى وهناك أمور تعبدية و غيبية لابد أن تخضع للوقفة الإيمانية للعقل ولذلك فإن الوقفة الإيمانية تقول إن الله سبحانه وتعالى هو الذى اختارهم تسعة عشر وهذه مشيئته ولكن الذين فى قلوبهم مرض يسألون لماذا اختار الله تسعة عشر ولو أن الله اختار عشرة لكان السؤال نفسه موجودا وهو لماذا اختار الله عشرة أما المؤمن فإنه يستيقن ويقول إن هذا اختيار الله سبحانه وتعالى.

ولو فتحنا هذا الباب ودخلنا إلى التعليل العقلى وحده وتركنا الوقفة الإيمانية للعقل لوجدنا أمامنا أسئلة كثيرة بلا جواب فقول الله سبحانه و تعالى:

﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٧].

كان لابد أن يحمل مثل هذا التساؤل ولماذا العدد ثمانية وليس أكثر ولا أقل والله سبحانه وتعالى خلق سبع سماوات وكان لابد أن نسأل لماذا خلق الله السموات سبعا ولم يخلقهن عشرا أو خمس عشرة وقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

فى قصة موسى عليه السلام كان لابد أن نسأل ما هى الحكمة في أن تكون أربعين ليلة ولماذا لا تكون ثلاثين أو عشرين وبهذا نفتح الباب أمام أشياء لا نعرف لها جوابا إلا أنها مشيئة الله فيما فعل و الله سبحانه وتعالى حين اختار هذه الأعداد لم يخترها بحيث يكون بينها قاسم مشترك تكون هذه ضعف هذه أو هذه نصف أو ثلث هذه وإلا لكنا قد ذهبنا إلى التعليلات ولكن الأعداد سبعة و ثمانية وتسعة عشر وأربعين ليس بينها قاسم مشترك ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد اختارها لأنها مشيئته ويأتى الذين فى قلوبهم مرض ليقولوا لماذا اختار الله هذا العدد ولكن الذين فى قلوبهم الإيمان يقفون وقفة إيمانية من هذه الأعداد و يعرفون أنها مشيئة الله فى اختياره وأن أى عدد يضرب به مثل إنما يمثل هذه المشيئة وتلك وقفة العقل الإيمانية التى تبعدنا عن متاهات لن نصل فيها إلى حقيقة ولذلك لا يجب أن نحمل الأمثال و الأعداد في القرآن الكريم أكثر مما تحمل.

❁ ❁ ❁

الأمثال فى القرآن.. ومثل الحياة الدنيا

حتى لا تغرنا الدنيا ونعتقد أنها دائمة أنزل الله سبحانه وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف: ٤٥].

أى: إن هذه الدنيا ليست ذاتية الخلق أى لم تخلق نفسها أو لم توجد هى بل خلقها الله سبحانه وتعالى تماما كما يخلق الزرع الذى تنبته الأرض، ولماذا ضرب الله مثل الحياة بالزرع لأن كل واحد منا يشهد دورة الزرع تحدث أمامه فى فترة قصيرة يشهد أولها وآخرها ومن هنا فإن المثل أمامه حى يعرفه ويراه مرة أو عدة مرات كل عام فيقول: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾؛ أى: إن الله سبحانه وتعالى وهو الذى ينزل الغيث وهو الذى خلق الحياة على الأرض تماما كما ينزل الماء من السماء فينبت الزرع ﴿ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾ أى إن هذا الماء الذى نزل من السماء قد أخذ من مقومات الأرض استمرارية الحياة فقد خلق الله الأرض وأودع فيها أسس استمرارية الحياة للإنسان أو العوامل و العناصر التى تكفل استمرار الحياة تماما كما ينزل الماء من السماء فيسقى الأرض ويأخذ النبات منها عناصر استمرار الحياة ليكبر ويعلو ويترعرع ولذلك فإن الأرض قادرة فقط على إعطاء عناصر استمرار الحياة ولكن الحياة بنفسها بدون ماء تنعدم فإذا ذهبنا إلى صحراء جرداء فيها الأرض وليس فيها الماء لا نجد فيها حياة.

إذن.. فأصل الحياة جاء من السماء وعوامل استمرارها خلقها الله ووضعها فى الأرض والأرض تأخذ زينتها وتعطى من استمرار مد السماء لها بالحياة أو مد الله لها بالحياة ثم يكبر الزرع وتأخذ الأرض زخرفها فينتج منه الثمار والورود ويصبح شكله بهيجا يسر الناظرين ثم بعد ذلك تأتى نهاية الحياة فيصبح هذا الزرع هشيما محطما لا جذور له فى الأرض تستطيع الرياح أن تعبث به فى أى مكان أى إن جذور الحياة تنتهى وتصبح كأن لم تكن ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾.

لأن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يوجد الحياة وقادر على أن يذهبها.

وهكذا ركز لنا الله سبحانه وتعالى الحياة الدنيا كلها فى حدث صغير يتسع له عمر كل فرد فينا ويقدر عليه بصر كل فرد فهو يركز الحياة الطويلة منذ خلق آدم حتى تقوم الساعة فى حالة موجزة من الممكن أن يشهدها كل فرد منا ويقول إن الغيب عنكم وهو هذه الحياة الطويلة من أولها إلى آخرها أقربه لكم فى مثل صغير انظر إلى الزرع كيف ينبت

ثم يصير هشيما واعلم أن هذه الحياة تماما مثل دورة الزرع مصيرها إلى فناء وزوال فلا تجعلها تغرك عن الله ولا تبعدك عن منهجه فهى مثل دورة الزرع ستنتهى إلى لا شىء.

ثم يضرب الله سبحانه وتعالى مثلا آخر للحياة فى سورة يونس: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَاللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ السَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ ﴾ [يونس]

فى هذا المثل الذى يختلف عن المثل الأول ضرب الله سبحانه وتعالى مثلا لبداية الدنيا ونهايتها ولكنه أعطانا فى هذا المثل شيئا من التفصيل لما يمكن أن يحدث بالنسبة لعمر الحياة على الأرض. ففى المثل الأول كان الكلام مجملا عن البداية والنهاية، ولكن فى هذا المثل وضع شيئا من التفصيل عن كيف تبدأ الدنيا وكيف تنتهى، فبداية الدنيا كماء نزل من السماء دليل على أن الحياة فى الدنيا مخلوقة وليست ذاتية فالماء ينزل من علو والحياة تأتى من الأعلى وهو الله.. هذه الحياة تستمر بإرادة الخالق أو باستمرار الوجود من العلو وهو المطر، وتأخذ عناصر استمراريتها من الأرض فتخرج الأرض النبات الذى يأكل منه الناس والأنعام، ثم يضيف الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ ﴾ [يونس: ٢٤]

وهذه الآية تمثل لنا استمرار موكب الحياة فى الأرض.

فالحضارة التى بدأت مع الإنسان تتقدم معه لتزين الأرض وتجعل لها زخرفها وهنا لابد أن ننتبه إلى عدة عناصر.

العنصر الأول: أن منشأ الحضارة هو من خلق الله وما زاد عليها من اكتشافات هو مما يكشف الله سبحانه وتعالى من علمه للإنسان، فأنت إذا أخذت نظرية من نظريات الهندسة ولتكن نظرية رقم مائة نجد أنها اعتمدت على النظرية التى قبلها وهى رقم ٩٩ وتلك اعتمدت على النظرية رقم ٩٨ والنظرية التى قبلها اعتمدت على النظرية التى قبلها وهكذا حتى نصل إلى النظرية رقم واحد وتسأل على ماذا اعتمدت فتجد أنها اعتمدت على بديهية من بديهيات الكون التى خلقها الله أى إن كل هذا العلم أساسه بديهيات الله فى الكون فالإنسان لم يخلق شيئا جديدا ويكشف عن خصائصه التى خلقها الله.

إذا أخذنا مثلا أشعة الليزر واستخدامها فى الطب وفى قياس المسافات وفى الحروب إلى آخر ما عرفناه وما يمكن أن تقدمه هذه الأشعة للإنسانية من استخدامات فى الكون.. والسؤال هنا هو من الذى أوجد أشعة الليزر؟ والجواب أن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلقها أى إنها ليست من خلق بشر ومن هنا فهى موجودة فى الكون منذ الأزل ولكنها لم تدخل فى علم الإنسان إلا خلال هذه الفترة فكأن الإنسان لم يخلق شيئا ولكنه

اكتشفه أو اكتشف استخداماته ولكن هذا الشيء موجود من خلق الله منذ خلق الأرض ومن عليها وكذلك كل اكتشافات العلم فى الحياة إنما هى كشف عن قدرة موجودة أو عن خصائص موجودة فى الكون لم نكن ننتبه إليها.

والعلم البشرى فى الكون كله فى آية واحدة من سورة فاطر:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝﴾ [فاطر].

ومن هنا فإن العلم الإنسانى يدور حول الأرض وما فيها وما تنبت وحول الجبال وما تحمل من معادن وأسرار وحول الناس والدواب والأنعام وكلما اكتشف العلم شيئا جديدا كان ذلك أدعى للعلماء الذين يكشف لهم الله دقة صنعه أن يكونوا أكثر الناس خشية لله، فهم يرون الإعجاز فى كل خلق الله وهم بوصولهم إلى هذا الإعجاز كان لابد أن تدخل الخشية إلى قلوبهم وهم يرون دقة الصنع وإبداع الخالق.

أما الخلق الحقيقى والإيجاد الحقيقى فلله سبحانه وتعالى مصداقا لقوله فى سورة لقمان: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝﴾ [لقمان].

هذا هو الخلق ولا يستطيع أن يدعيه أحد إلا الله و العلم لم يخلق شيئا ولكنه اكتشف خصائص استخدمها الإنسان، فالإنسان فى الماضى كان يحفر الأرض بقطعة من الخشب فجاء العلم وأعطاه المحراث مستخدما مواد الله فى الكون ثم أعطاه «الجرار» وكل إضافة جديدة تجعل عملية الزرع أسهل ولكن أساس الزرع وجد مع الإنسان ولا يستطيع أحد أن يدعيه بل إن هناك أشجارا فى الغابات الكثيفة تقذف بحبوبها بعيدا لتنبت هناك أشجارا جديدة من دون أن يكون للإنسان دخل فى ذلك.

والماء أوجده الله مع الخلق ولكن العلم استطاع أن يقلل المتاعب بدلا من أن أذهب إلى العين أو إلى النهر لأشرب نقل لى الماء باستخدام المواد التى خلقها الله بحيث أصبحت أجد كوب الماء فى المكان الذى أعيش فيه و الشمس بكل أشعتها وما فيها من أسرار هى كما هى منذ بدء الخليقة وكل يوم نكتشف أشعة من أشعة الشمس لها فوائد لم نكن نعرفها فنستخدمها، وهكذا كلها اكتشافات لخصائص وليس إيجادا لأشياء، فلا يوجد شيء نأتى به من العدم ولكن العقل المخلوق لله يوجهه الله للعمل فى المادة المخلوقة من الله فيكتشف شيئا جديدا وحتى الإنسان هومن آدم فالسبب فى وجودى هو أبى وأمى و السبب فى وجودهما هو جدى وجدتى فإذا تتبعنا الخيط نجد أننا نصل إلى أصل البشرية

كلها وهو لابد أن يوجد ذكر وأنثى أى إنه لابد من الخلق ليبدأ التكاثر وهذا الخلق هو آدم وحواء بل إن عدد البشر فى الدنيا يزداد كل عام أى إنه منذ قرن مضى كان عدد البشر أقل ومنذ عدة قرون كان أقل جدا ونظل نتسلسل إلى أن نصل إلى البداية وهى ذكر وأنثى.

وقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٢٤].

يصور لنا تسلسل الحضارات ذلك أنه عند بداية الحضارة كان التقدم فى العالم يسير بطيئا بحيث لا يوجد اكتشاف إلا كل فترة طويلة من الزمن ولأن العقل البشرى أعطاه الله القدرة على أن يرث الحضارة الإنسانية فكل عقل يرث حضارة الجيل الذى قبله وهكذا لا يبدأ كل جيل من الصفر ولكنه يبدأ ولديه رصيد من الحضارات والاكتشافات يساعده على أن يكون التقدم أكثر وأسرع وهكذا كلما مر عصر وجاء عصر جديد كان هناك إضافة ضخمة إلى رصيد الإنسان الحضارى تمكنه أن يبدأ من نقطة متقدمة عن الجيل الذى قبله.

ومع استمرار التقدم والزمن يصبح لدى الإنسانية بداية لأن تضيف أكثر من ذلك إنها تبدأ من حيث انتهى الآخرون وهكذا نجد مع تقدم الزمن بعد أن كان هناك كل ١٠٠ سنة اكتشاف علمى يصبح هناك اكتشاف علمى كل عشر سنوات ثم كل خمس سنوات ثم كل سنه.. ثم كل يوم ثم عدة اكتشافات فى اليوم الواحد كل ذلك لأن الله سبحانه وتعالى ميز الإنسان بعقل يرث الحضارات ولم يعط هذا العقل لباقى مخلوقاته، فالحيوانات مثلا تعيش بالطريقة نفسها منذ بداية خلقها فهى لم تضف شيئا إلى حياتها وليس لها رصيد حضارى أو عقل يرث الحضارات وكذلك الجماد والنبات وإنما الذى يملك عقلا يرث الحضارة ويضيف إليها هو الإنسان ميزه الله سبحانه وتعالى وفضله على خلقه.

الأمثال فى القرآن.. وغرور العلم

يمضى موكب العلم ليضيف اكتشافات جديدة إلى حياة الإنسان ويزين الأرض فكل ما على الأرض هو زينة لها كما أن ما يحدث على الأرض من عمارات شاهقة وما يؤسس عليها وما يزرع بالزرع المختلف الألوان هذه كلها زينة للأرض فلا أحد يأخذها معه ولا يأخذ شيئا معه إلا حسناته أو ذنوبه أما كل ما عمله فوق الأرض وما بناه فهو يتركه زينة للأرض نفسها يأتى الذين بعده و الذين من بعدهم فيرونه ويعجبون به وقد لا يعرفون من أقامه ولكنهم يتمتعون بالزينة التى تملأ الأرض.

حينما يتقدم العلم ويرى الناس ما تحققه لهم الاكتشافات العلمية يبدأون فى الاتجاه إلى العلم وينسون المعلم الذى وضع هذا العلم فى الأرض ويسر لنا أن نكتشفه.

ويبدأ الإنسان يغتر بقوته ويحس بأنه هو الذى يعمل وهو الذى يضيف ويرى أثر العلم فى ظاهر الحياة الدنيا فيتجه إليه.

ولكن العلم الذى قد يعطى الإنسان الكثير لا يستطيع أن يعطيه شيئا واحدا مما سيعطيه له الله بقدرته، فقد جعلنى العلم أضغط على الزر فيطهو لى الطعام أو يأتينى ما أطلب ولكنه لا يستطيع ولن يستطيع أن يجعلنى أجد الشيء أمامى بمجرد أن يخطر على بالى فساعة أفكر فيه وبدون أن أعمل شيئا أجده حاضرا أمامى وهذا سيحدث فى الآخرة، وهو أبسط ما سيحدث فيها بالنسبة للمؤمن.

لكن الإنسان يظل يتقدم بالعلم حتى يظن أنه قد سيطر على الأرض تماما ويحس أن كل ما يطلبه أو يريده يستطيع أن يحققه وأنه قادر على أن يصل إلى كل ما يريد بالنسبة للأرض وما عليها حينئذ يصدق فيه قول الله ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ ﴾، وهذا الظن يرجع إلى نسبة الإنسان كل شيء إلى قدراته ناسيا قدرة الله سبحانه وتعالى الذى يسر له ذلك، حينئذ حين يصل الإنسان إلى هذه الدرجة العالية من الحضارة حتى يظن أنه قادر على أن يتحكم فى كل ما على الأرض فيجعله يعمل وفقا لهواه أو إرادته تكون نهاية الإنسان وقيام الساعة: ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ ﴾.

حينئذ تقوم الساعة ويأتى أمر الله ليعرف الإنسان يقينا أنه غير قادر على شيء وقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾

دليل على أن الليل والنهار موجودان على سطح الأرض فى وقت واحد فبعض

الناس ستأتيهم الساعة والوقت عندهم نهارا لأن الله خلق الليل والنهار معا مصداقا لقوله تعالى فى سورة يس: ﴿ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾ [يس: ٤٠].

وكان العرب يقولون إن الليل يسبق النهار ويبدأون يومهم بالليل أولا أى بعد غروب الشمس وهكذا عندما نزل القرآن كانت هناك قضيتان قضية النهار يسبق الليل وهذه لم يتعرض لها أحد ولم يقل بها أحد وقضية أن الليل يسبق النهار وهذه كانت خطأ يعتقده العرب فجاء الله سبحانه وتعالى ليصحح هذا الخطأ فقال: ﴿ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾.

ومعنى ذلك أن الليل لا يسبق النهار كما يعتقدون وما دام الليل لا يسبق النهار والنهار لا يسبق الليل إذن فقد وجدا على الأرض فى وقت واحد.

﴿ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا ﴾ [يونس: ٢٤].

بعد أن استعرض الله سبحانه وتعالى كيف أن العلم البشرى و الحضارة البشرية سترقى وتتقدم حتى يحسب الإنسان أنه قد سيطر على الأرض تماما وأصبحت الأرض خاضعة لمشيئته وإرادته كل شىء فيها هو يتحكم فيه حينئذ تقوم الساعة فيدمر الله الأرض وما عليها وتنتهى الحياة من الدنيا ويصبح كل الذين ظنوا أنهم قادرون على الأرض لا يقدرون على شىء.

على أن هذا الهلاك أو هذا الدمار الذى يتم فى الآخرة لا يجعل الله سبحانه وتعالى يترك الدنيا بلا عقاب للكافرين حتى تقوم الساعة بل إن السماء تتدخل إذا استشرى الظلم وعم الفساد وكان الكفر هو عقيدة الناس.

❁ ❁ ❁

الأمثال فى القرآن.. وعذاب الجوع والخوف

يقول اللّه سبحانه وتعالى فى سورة النحل : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : ١١٢].

ونظرة واحدة إلى خريطة العالم ترينا كيف أن هذا المثل الذى ضربه اللّه سبحانه وتعالى موجود فى كل بقاع الدنيا والأصل فى الخلق أن اللّه خلق الناس ويسر لهم رزقهم وأعطاهم المنهج الذى لو اتبعوه لعاشوا آمنين مطمئنين ولو أن منهج اللّه طبق فى أية دولة فى العالم وفى أعتى الدول إجراما لحولها إلى أكثر الدنيا أمانا، هذه هى الحقيقة التى لابد أن نعرفها والتى نستطيع أن نصل إليها بسهولة إذا أحصينا عدد جرائم القتل والنهب والسلب فى الدول التى طبقت منهج اللّه فنجدها تكاد تتلاشى.

ماذا يحدث لهذه القرى ولماذا تتحول من الأمن إلى الخوف ومن الشبع إلى الجوع ولماذا فى كل دولة فى العالم حرب وقتال وقتل ولا يوجد هناك أمان، السبب فى ذلك أن الإنسان كفر بنعمة اللّه وابتعد عن طريقه ووضع منهجا لهوى النفس. بما أن الذين يضعون هذا المنهج هم الأقوياء أو الحكام أو المترفون فقد جاءوا بما يحقق لهم أكثر الميزات وبما يسلب من غيرهم كل الميزات وهكذا أصبح هوى النفس هو الذى يحكم ومع هذا الهوى وجد الظلم ومع الظلم وجدت الثورات والانقلابات ثم المطامع و الحروب وكل واحد يريد أن يأخذ ما فى يد الآخر ولا أحد يأخذ شيئا بل كل نعم الدنيا تنتقل من يد إلى يد.

انظر بعد ذلك ماذا يكون العقاب يقول اللّه سبحانه وتعالى : ﴿ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴾ [النحل : ١١٢].

والجوع ألا يجد الإنسان ما يقيم أوده أو الطعام الذى يكفيه هو ومن يعول و الخوف هو ألا يكون آمنا على نفسه أو على من يعولهم.

وكلا العاملين الجوع والخوف هما البلاء فى كل الحروب فالشعوب فى الحروب تجوع ولا تجد طعاما. وكما شهدنا فى الحرب العالمية مثلا كان نصيب الفرد فى بريطانيا بيضة واحدة فى الأسبوع.

أما فى الأماكن التى دارت فيها الحروب فلم يكن الإنسان يستطيع الحصول على بيضة أو قطعة من السكر أو رغيف من الخبز مع أن عندهم الأرض التى تنتج ما يحتاجون ويزيد.

والحرب تقضى على الخير وتذيق الناس لباس الجوع ثم ينتشر الخوف من الموت الخوف من الرصاص الطائش الخوف من العدوان فلا أحد يحمى أحدا، المهم فى ذلك كله أننا إذا نظرنا إلى العالم اليوم نجد فى أكثر من بقعة منه ناسا تذوق لباس الجوع و الخوف.

ونجد معظم الناس حتى فى الدول التى ليس فيها حروب خائفين وربما سلط الله عليهم أنفسهم فامتلأت الدولة بالعصابات التى تسرق وتقتل وربما سلط الله عليهم غيرهم فغزا أرضهم وربما نشأت البغضاء والضغينة بينهم وبين بعض فقامت الحروب وكما قلت فإنه يكفى نظرة واحدة إلى أحوال العالم المضطرب الذى تعيش فيه ومن أغنى الدول حتى أفقرها لنعرف رضا الله على خلقه ولنرى غضب الله على خلقه.

على أن عدل الله كما اقتضى ألا يأخذ كافرا أو مذنبا أو عاصيا ويترك كافرا آخر كذلك فإن هذا العدل اقتضى ألا يتحمل مؤمن وزر معصية كافر وأن تكون كل نفس مسئولة عما تفعل ولا تحاسب عما تفعله غيرها ولقد ضرب الله سبحانه وتعالى أكثر من مثل لذلك فى القرآن الكريم وكانت الأمثال بأقرب الناس إلى الله سبحانه وتعالى وهم الأنبياء فكان أبو إبراهيم كافرا رفض أن يؤمن وكان ابن نوح كافرا رفض أن يؤمن ورفض أن يركب مع أبيه السفينة وقال: ﴿ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ﴾ [هود: ٤٣].

وكانت امرأة لوط وامرأة نوح غير مؤمنتين خانتا زوجيهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وكانت امرأة فرعون مؤمنة فلم يصبها كفر زوجها بأذى وبنى الله لها قصرا فى الجنة.

وفى ذلك يقول القرآن الكريم فى سورة التحريم: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۝ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝ ﴾ [التحريم].

ويلاحظ هنا فى القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى لم يقل على لسان امرأة فرعون ونجنى من زوجى لأنه فى هذه الحالة مادام كافرا وهى مؤمنة فلا زواج بينهما بل إن صلة النسب تنتفى، فنوح عندما قال لله بعد أن وعده بأنه سينجيه وأهله من الغرق: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ۝ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ۝ ﴾ [هود].

فهذا يدل على أنه فضلا عن أن أهل أى نبى هم المتبعون لمنهجه فإن الإنسان لا يحاسب عن وزر يرتكبه آخر وهكذا نجد أن امرأة فرعون رغم أن زوجها وكل المحيطين بها كانوا كفارا فإنها حينما توجهت بالدعاء إلى الله أن يبنى لها قصرا فى الجنة وينجيها من فرعون وعمله لم يتقبله منها فقط بل ضرب بها مثلا فى القرآن الكريم حتى لا تأتى امرأة يوم القيامة فتقول إن زوجى كان كافرا فاتبعته أو يأتى رجل يوم القيامة فيقول إن

زوجتى كانت كافرة فأغوتنى أو يأتى أى إنسان فيقول إن أباه أو عمه قد أغواه نقول لهؤلاء جميعا إن عدل الله سبحانه وتعالى شاء: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [النجم: ٣٨]، ومن هنا فإنك إن ابتعدت عنهم ولم تشترك معهم فى الكفر وآمنت بالله فلن يضرك كفرهم شيئا وإذا اتبعت على أن يحملوا أوزارك يوم القيامة فلن يحملوا منها شيئا وستحمل أنت هذا الوزر.

ولا تعتقد أن الذى يحمل منهجا ولا يعمل به هو فى حماية من العذاب بل حمل المنهج أساسه العمل به تلك هى القاعدة التى يريدها الله سبحانه وتعالى لعباده ومن هنا فقد ضرب المثل للذين يحملون منهج الله ولا يعملون به فقال فى سورة الجمعة: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الجمعة: ٥].

أى: إنه شبه الذين لا يعملون بالمنهج مع أنهم يعرفونه كمثل الحمار الذى يحمل مجموعة من كتب الحكمة و العلم هل يستفيد منها شيئا؟ طبعا لا يستفيد مع أن الناس حين يعرفون أن إنسانا يحمل منهجا فهم يتبعونه أو يطيعونه يقول لهم الله سبحانه وتعالى لا تغتروا بمن يحمل المنهج ولا يعمل به ولا يغركم أنه يحمله ويتساءل الناس كيف ذلك؟ فيعطيهم الله الصورة التى تقرب مثل هذا الإنسان إلى عقولهم بصورة محسوسة يرونها أمامهم كل يوم، فيقول لهم: إن هذا الشخص مثل الحمار الذى يحمل كتبا فيها قيم وعلم وحكمة هل يستفيد منها شيئا؟ مهما كان يحمل من كنوز، هؤلاء تماما عند الله كالحمار قد يحملون علم الدنيا كله ولكنهم لا يعرفون شيئا ولا يستفيدون شيئا وذلك أيضا مثل الذين كفروا بآيات الله. على أن الله ضرب فى القرآن الكريم أمثالا للعمل الطيب والعمل السيئ، الكلمة الطيبة والكلمة السيئة والحق والباطل وضرب مثلا لعيسى عليه السلام فقال: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩].

❁ ❁ ❁

عدل الله سبحانه وتعالى والاختيار

منهج الله سبحانه وتعالى هو اختبار لحب الله فى النفس البشرية؛ ذلك لأن الله سبحانه وتعالى قد خلق أجناساً كثيرة وأراد أن يعطيها الاختيار فى أن تطيع أو لا تطيع فلم تقبل، وقالت رب: إننا نريد أن نكون مقهورين على حبك وعبادتك، ولسنا مختارين ولذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ومن هذه الآية يتبين عدل الله سبحانه وتعالى بالنسبة لخلقه، ذلك أنه قبل أن يلزمه عرض عليه فمن لم يقبل منهم بقى مكرها، ومن قبل مختارا كان عدلا أن يحاسب على اختياره.

إذن.. منهج الحياة كلها هو اختبار لحب الله فى النفس البشرية، وإغراء الشيطان كله يتركز حول نقطة واحدة هى أن يجعل الإنسان يترك حب الله، ويذهب إلى حب من هم دون الله مما لا يضر ولا ينفع، وبذلك ينقل الإنسان من رحمة الله إلى خارج موجبات هذه الرحمة، فيضل الإنسان فى الأرض ويشقى لأنه يعمل بالقدرات البشرية دونما الاستعانة بقدرة الله سبحانه وتعالى.

تلك هى القضية الأساسية للإيمان، وإذا حللنا أحداث الحياة كلها نجدها إما حبا لله وطاعة له، وإما حبا لغير الله ومعصية لله؛ فالذى يأكل المال الحرام إنما ارتفع فى نفسه أو زاد فيها حب المال على حب الله، فانطلق الإنسان وراء المال ونسى طاعة الله وأحب المال أكثر من حب الله سبحانه وتعالى، والذى يفسد فى الأرض ارتفع عنده حب شهوات النفس إلى أكبر من حب الله، فأطلق لشهواته العنان ونسى الله، وفى كل حدث من أحداث الدنيا يمر عليك فيه اختبار لحب الله فى النفس، فأنت إذا تركت نفعاً عاجلاً، كمالٍ أو شهوة حرام فى سبيل الله، فإن حبك لله سبحانه وتعالى يكون أكبر من حبك لما هو دونه، وأنت إذا قضيت بالعدل وأنصفت مظلوما ووقفت مع الضعيف ورعيت الله فى مالك وبيتك، فذلك هو حب الله فى نفسك، دفعك ربما أن تعرض نفسك للأذى فى سبيل حب الله سبحانه وتعالى.

وإذا رجعنا إلى قصة إبراهيم أبى الأنبياء وخليل الله وإسماعيل عليهما السلام ماذا نرى؟ نرى أن إبراهيم عليه السلام قد رأى رؤيا فى المنام أن الله سبحانه وتعالى يأمره بذبح ولده إسماعيل، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ

أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الصافات].

وهنا نقف وقفة .. نحن نعرف أن إبراهيم عليه السلام لم يرزق بإسماعيل إلا بعد فترة طويلة، مرت عليه عدة سنوات وهو لم ينجب من زوجته سارة، ثم تزوج بهاجر وهى مصرية وأنجب منها إسماعيل، إذن هذا الطفل الذى جاء بعد سنوات عديدة يكون غاليا جدا على الأب، وإذا أضفنا إلى ذلك أنه بلغ معه السعى؛ أى إنه كبر واقترب من مرحلة الشباب يكون تعلق أبيه به أكبر باعتبار أنه معين له فى شيخوخته.

حينئذ يأتى أمر الله فى المنام ليأمر إبراهيم أن يذبح ابنه، ماذا يمكن أن يحدث فى هذه الحالة؟ أب قد بلغ مرحلة الشيخوخة، وابنه الوحيد وفى السن التى يعتمد فيها الأب على الابن ثم يأمره الله أن يذبحه، أهناك اختبار لحب الله فى القلب أكبر من هذا الاختبار.

ولا يأمره الله سبحانه وتعالى أن يذبح بعيدا عنه حينئذ تكون المصيبة أهون بأن يتركه هو ويرحل ولا يرى شيئاً ويأتى غيره ليذبحه، ولكن الله يأمر أن يقوم إبراهيم نفسه بذبح الابن ويمسك السكين بيده ويضعها على عنق ابنه ليذبحه.

أرأيت اختبارا أكبر من هذا لحب الله سبحانه وتعالى؟ وهل من يمتثل لهذا الأمر يكون هناك شىء فى قلبه أقوى من حب الله، ومن منا إذا قيل له إن الله يأمرك أن تذبح ابنك الوحيد وأنت شيخ لا يرجى لك بأسباب الدنيا أن ترزق بغيره، من منا يمتثل لذلك إلا أن يكون حب الله فى قلبه أكبر من الدنيا بما فيها، لأن الإنسان قد يضحى بماله وقد يضحى بزوجته، ولكن عندما تأتى مسألة الابن تكون عملية قاسية على النفس.

ومع ذلك أخذ إبراهيم ابنه وأخذ السكين وانطلق به إلى حيث تتم عملية الذبح، وهنا جاء الشيطان محاولاً أن يغرى إبراهيم بالمعصية، أو أن يثير إسماعيل على أبيه فكان رد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام هو رميه بالجمار ليبتعد عن طريقهما، ولم يستطع الشيطان أن يجد منفذا إلى قلبيهما.

وانطلق إبراهيم عليه السلام إلى المكان المحدد وأمسك بالسكين ليذبح ابنه طاعة لله سبحانه وتعالى، ولينجح فى اختبار حب الله فى النفس، ذلك الحب الذى يعلو على كل شىء حتى على حب الأب الشيخ لابنه الوحيد.

حينئذ ينزل الملك بالكبش ليفدى إسماعيل عليه السلام، ويعرف إبراهيم أن المسألة كانت اختبارا لحب الله فى إبراهيم نفسه، وأن إبراهيم عليه السلام نجح فى الاختبار.

ولم يكن هذا مثلا غير متكرر وإن اختلفت الظروف ولكنه مثل يتكرر فى الدنيا كل يوم، ففى أول الإسلام وعند الهجرة ماذا حدث؟ ترك المسلمون أموالهم وأولادهم

وأسرهم وزوجاتهم وكل ما يملكون فى مكة، وانطلقوا إلى المدينة مهاجرين إلى الله، تركوا كل متاع الدنيا من أجل الله ورسوله، وكان هذا اختبارا لحب الله فى نفوسهم، ولو أن أحدا قال الآن: هيا نترك أموالنا وأولادنا وزوجاتنا وننطلق مجاهدين فى سبيل الله.. لرأيت كل إنسان يتعلل لك بعذر، فواحد يقول: إن أولاده صغار، وآخر يقول: يبقى من أجل كذا وكذا، فالجهاد والعبادة هما اختبار لحب الله سبحانه وتعالى فى النفس البشرية، وإذا وصلت النفس البشرية إلى أن حب الله ورسوله فوق حبها للدنيا وما فيها من زوجة وولد ومتاع وصل إلى أعلى درجات الإيمان مصداقاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»(١).

والله سبحانه وتعالى قد خلق الناس مختارين ليكون الحساب عدلا، ذلك أنه رغم أنه رب العالمين إلا أنه لا يلزم بالتكاليف الإيمانية إلا من آمن به، ولذلك نجد أن الله سبحانه وتعالى حين يتحدث عن الصلاة أو الصيام أو الزكاة أو العبادات فإنه لا يقول: يا أيها الناس، ولكنه يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ أى يا من آمنتم بى إلها واحداً أحداً، هذا هو الطريق إلى عبادتى ومرضاتى؛ أن تقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة وتحكموا بالعدل بين الناس، إلى آخر التكاليف التى يضعها الله سبحانه وتعالى بالنسبة لمن دخل فى عقد إيمانى مع الله أما من لم يدخل ولم يؤمن فإن الله لا يكلفه بشىء لأنه ليس بعد الكفر ذنب.

ولقد شاء الله سبحانه وتعالى رحمة منه بعقولنا أن يضرب لنا أمثلة فى القرآن الكريم عن الإنسان الذى يرى دين الحق وآيات الله فى الأرض ثم بعد ذلك يبتعد عنها ويتخذ من المعصية سبيلاً فقال الله سبحانه وتعالى فى سورة الأعراف: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝ ﴾ [الأعراف].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ [الحج: ٧٢].

الله سبحانه وتعالى يبدأ بقوله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

وهذا المثل لن نتحدث عنه فى خصوصية من خصوصياته بل سنتحدث فى عموميته، ذلك أن الأمثال فى القرآن الكريم إنما ضربت للناس جميعا وهى تتكرر وتقع فى كل زمان ومكان، أبطالها بين الناس جميعا فإذا نظرت فى أى عصر فإنك ستجد فرعون

---

(١) رواه أحمد فى المسند [٣/ ٢٠٧] عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

موسى فى الحاكم الذى يريد أن يعبد فى الأرض من دون الله، وستجد قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وكل من استكبروا وعثوا فى الأرض مفسدين، وأكلوا الكيل والميزان هنا فى كل أمور الدنيا وكل حقوق البشرية والذين استكبروا وقالوا: من أشد منا قوة إلى آخر الأمثال التى ضربها الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم، ستجدهم جميعا ممثلين فى أمم موجودة فى الأرض، حتى الذين يعبدون الأصنام والأوثان، والذين يعبدون البشر، والذين يعبدون المال أمثال قارون وغيرهم، كل هؤلاء أمثلة متكررة أمامنا فى الحياة حتى نرى ونعى ونعرف فلا نقع فى الضلالة، ولا نبتعد عن طريق الله، ولا تخدعنا كل المغريات التى يحاول الناس أن يقدموها لنا وهى حق يراد به الباطل.

آيات الله فى الكون.. شاهدة على قدرته

آيات الله فى الكون ظاهرة ومعروفة و العقل يهتدى إليها، والفطرة تهتدى إليها وعدل الله سبحانه وتعالى شاء أن تكون آياته فى كونه منذ بدء الخليقة حتى قيام الساعة ظاهرة للناس أجمعين، فهذا الكون بكل ما فيه من معجزات ومن شموس وأقمار وسماء وأرض وجبال وبحار ونبات وحيوان وإنسان هو من آيات الله سبحانه وتعالى، ولا يستطيع أحد أن يدعى مهما تكبر فى الأرض وعلا أنه هو الذى خلق الشمس، أو خلق الأرض، أو خلق النجوم، أو خلق نفسه فتلك قضية تغلب كل كافر، ولقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى ذلك فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة وبين أنه لا أحد يستطيع أن يدعى الخلق أو حتى وضع نظام الكون عندما كان الذى آتاه الله الملك يقارع الحجة بالحجة مع إبراهيم عليه السلام.

فقال إبراهيم: ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ فقال الملك المتكبر: ﴿ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] مشيرا إلى أنه قد يحكم على الإنسان بالموت فكأنه يميته، ثم بعد ذلك يعفو عنه فكأنه يحييه، ولو أن هذه القضية تحتاج إلى مناقشة، لأن القتل هو نقض للبنية يجعل الروح تخرج من الجسد أما الموت فهو انتهاء الأجل فى الحياة مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] أى إن الله فرق هنا بين الموت والقتل.

ماذا حدث بالنسبة لإبراهيم عليه السلام؟ قال: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] أى إنه عندما أشار إبراهيم عليه السلام إلى نظام الكون فقط، بل إلى جزء يسير جدا من نظام الكون وهو شروق الشمس وغروبها فبهت الذى كفر وسقطت حجته ولم يستطع الإجابة.

إذن.. آيات الله فى الكون التى تدل على أنه الخالق، موجودة وظاهرة أمامنا جميعاً والإيمان فينا بالفطرة، وللعقل أن يناقش كيف يشاء، وغاية ما يستطيع العقل أن يصل إليه أن هناك خالقا لهذا الكون وضع هذا النظام البديع، وأن هذا الخالق سبحانه وتعالى قد سخر للإنسان كل القوى الموجودة فى هذا الكون لخدمته، وهذه القوى هى أقوى من الإنسان ملايين المرات؛ أى إن الإنسان لا يستطيع أن يسخرها بقدراته هو؛ فلا يستطيع أحد أن يسيطر بقدراته علي الشمس، أو البحار أو الأمطار، أو الجبال وغيرها، ومع ذلك فكل هذه الأشياء تخدم الإنسان وتعينه في حياته، فإنما هى مسخرة لخدمته من قوة أعلى

هى التى خلقتها وهى التى سخرتها، وحينئذ يهتدى العقل إلى أن الله سبحانه وتعالى هو خالق هذا الكون.

ولكى يعرف الناس ماذا يريد الله سبحانه وتعالى منهم مقابل ما سخر لهم من النعم، كان لابد أن يرسل الله رسولاً يبين منهجه فى الكون، وأن يكون هذا الرسول مؤيداً بمعجزة تخرق قوانين الأسباب حتى يصدق الناس ويطمئنوا أنه مبلغ عن الله سبحانه وتعالى.

إذن.. آيات الله فى الكون هى معروفة وممحصة لنا جميعا، ولكن الإنسان يرى هذه الآيات وينسلخ عنها، أى إنه يتركها واحدة بعد الأخرى يبدأ بالتخلى عن واحدة وينكر الثانية وينسى الثالثة، وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا، فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادا كالكوز مجخيا لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً»[1].

يترك الإنسان نعم الله واحدة بعد الأخرى، ومعنى يتركها أى ينكرها، فإذا كانت عنده نعمة الصحة ادعى أن ذلك من قدراته الذاتية؛ لأنه يفعل كذا ويمشى على نظام كذا، وإذا ذكر بالكون أخذ ينكر أن الكون مسخر له من الله وادعى أن ذلك إنما هو الطبيعة، ثم بعد ذلك ادعى لنفسه أنه صانع الحضارة وصانع العلم، وصانع التقدم، إلى آخر ما نسمعه.

حينئذ ماذا يحدث؟ الذى يحدث أن الله سبحانه وتعالى يتخلى عنه ويتركه لقدراته التى عبدها، أو للآلهة من البشر الذين عبدهم ماذا يحدث فى هذه اللحظة؟ يكون الشيطان متربصاً، له لماذا؟

لأن الشيطان عدو للبشر عداوته دفينة وعميقة منذ بداية عهد البشرية، فهو يحقد على آدم لأن الله كرمه عليه وأمره بالسجود له، ويزداد حقداً لأنه هو السبب أو الوسيلة التى أغوى بها وقادته إلى معصية الله وإلى الطرد من الجنة وإلى العذاب فى الآخرة.

والإنسان مع الله فى حماية من الشيطان، لماذا؟ لأن الله يدافع عن الذين آمنوا، ولأن الله يثبت الذين آمنوا، ومن هنا فإن الشيطان لا يجرؤ على أن يقترب من عباد الله المخلصين لأن الله سبحانه وتعالى قد قال: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾.

ولنضرب مثلاً - ولله المثل الأعلى - إذا كان أمامى حمل ثقيل لا أستطيع أن أحمله فماذا أستطيع أن أفعل لأقوم بهذا العمل، بلا شك أننى سأحاول أن أستعين بمن هو أقوى منى ليعيننى عليه، حينئذ لو جاء الرجل القوى وحملنا ذلك الحمل الثقيل معا فإننا نستطيع أن نرفعه فإذا كانت قوة الإنسان الأقوى تعين، فما بالك بقوة الله سبحانه وتعالى حين تكون

(١) جزء من حديث رواه مسلم [١٤٤/٢٣١] عن حذيفة رضى الله تعالى عنه.

معك، حينئذ يصبح هذا الحمل لا شيء، ولكنك إذا كفرت بالله - والعياذ بالله - واعتمدت على نفسك فماذا يحدث؟ ستسقط أنت وما تحمل على الأرض وما تقوى عليه أبدا.

كذلك غواية الشيطان ما دام معك الله فلن يستطيع أن يسقطك أبدا على الأرض حتى لو كنت تحمل أثقال الدنيا كلها، فأنت تدخل على الحياة بكل أثقالها وفى قلبك الإيمان الذى يجعل الصعب سهلاً والمستحيل ممكنا، يهون الله أمامك كل صعب ويفتح لك من أبواب رحمته ما يجعلك تحمل على كتفيك ثقلاً واحدا من أثقال الحياة، حينئذ لا يجد الشيطان إلى نفسك مدخلاً.

ولكن ماذا يحدث إذا تركت الاستعانة بالله واستعنت بمن هم دون الله؟

أولاً: يسلط الله عليك خلقه فذلك الذى تعتقد أنك قد أرضيته نفاقا ورياء باطلاً وارتكبت فى سبيله السيئات والمعاصى وظلمت الناس لترضيه، تجده أول من ينقلب عليك ويقابل الإحسان بالإساءة، ولأنه إحسان لم تقصد به وجه الله فإنه لا يعود عليك إلا بالسوء، والأمثلة أمامنا كل يوم من أناس يشكون الجحود ومقابلة الإحسان بالإساءة أقول لهؤلاء جميعا إنكم لم تقصدوا بإحسانكم وجه الله؛ لأن الله يقول: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

ولكن قصدتم إرضاء بشر فجاءكم الجزاء بمقاييس البشر؛ ثم يسلط الله عليك هم الدنيا فتبدأ تحمل هم ما هو قادم أو ما هو غيب عنك، وتحس بعجزك أمام الأثقال التى تتوقعها، وبما أنك تعبد عقلك والعقل لا يجد لك الحل فإنك أحيانا تلجأ إلى الانتحار وأحيانا أخرى تنغمس فيما يغيب العقل.

والمهم فى هذا كله أن الدنيا كلها تنقلب إلى شقاء داخل النفس يؤرقها ويعذبها؛ وحينئذ يأتى دور الشيطان الذى اتبعك ويبدأ الشيطان غوايته بأن يخوفك من الدنيا يخوفك من رئيس أو حاكم ظالم فتعينه على ظلمه، ويخوفك من رزق قادم فتمد يدك إلى المال الحرام مدعيا أنك بذلك تؤمن مستقبلك ومستقبل أولادك، ويخوفك من وظيفة أو منصب يزول عنك فتحاول أن ترضى رؤساءك بدلا من أن ترضى الله، وتجد نفسك فى دوامة من الخوف مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وتظل تدور فى دائرة الخوف حتى تفقد الحياة كل معنى لها، وتجد نفسك غير آمن على حياتك وأولادك تحس دائما بالقلق يقتلك وترى فى الغد صورة مفزعة للحياة والمستقبل.

تلك هى عداوة الشيطان للإنسان وعندما يأتى يوم القيامة يتبرأ الشيطان من كل هذا ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

أى إن الشيطان زين له الباطل وجعله يغويه بأن أظهره له فى غير حقيقته، فى صورة

مزيفة ولكنها وردية، متاع الغرور في الدنيا كأن تملك وتملك وتملك سيارة وعمارة وأرضا وكل هذا هو من أساليب الغواية؛ لأنه لا أحد يملك شيئاً إلا الله سبحانه وتعالى فنحن كما دخلنا نخرج لا نحمل إلا حسناتنا أو سيئاتنا.

ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

يقول الله سبحانه وتعالى إن هذا لا يحدث رغما عن مشيئة الله جل جلاله وتعالى وعلا، ذلك أن الله شاء أن يعطى للإنسان حرية الاختيار بين الحق والباطل، وبين الطاعة والمعصية، فبادئ ذى بدء كون أن الإنسان يملك القدرة على الاختيار وليس مقهورا كالشمس، والجبال، والأرض، والحيوان، كون هذا حدث فهذه مشيئة الله فى أن يعطيه حق الاختيار، ذلك أنه لا شيء يحدث فى الكون ضد مشيئة الله سبحانه وتعالى بل كل ما يحدث في الكون هو بمشيئة الله.

الله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا هنا إلى حقيقة مهمة، أنه سبحانه وتعالى ليس عاجزا عن مواجهة الكافرين ولا هو غير قادر على أن يهلكهم، وأن كل ما يحدث فى الكون بمشيئة الله سبحانه وتعالى الذى شاء أن يخلق الإنسان مختارا ليكون الحساب عدلا، وتكون الجنة حقا والنار حقا، فكل إنسان صالح لأن يفسد أو يصلح، وفى هذا شاءت إرادة الله سبحانه وتعالى بعد أن بين له طريق الحق وطريق الضلال شاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يتركه مختارا ليلقى جزاءه، فإذا أتى الله أتاه مختارا بدون جبر من الله سبحانه وتعالى، وإذا اتخذ سبيل المعاصى تركه الله يمضى فيه؛ لأن الله تعالى لا يهدى القوم الظالمين والقوم الفاسقين. إذن.. لا يعتقد أحد أن إنسانا يعصى الله تحديا أو عدم قدرة، ولكنه يعصى الله سبحانه وتعالى لأن إرادة الله سبحانه وتعالى شاءت له أن يقدر على المعصية كما يقدر على الفلاح والإيمان.

إذن.. لو شاء الله سبحانه وتعالى لرفعه بهذه الآيات، ولفتح له طريق الإيمان ولكن إرادة الله التى شاءت أن يخلق الإنسان مختارا، هى التى جعلت الإنسان صالحا للمعصية وصالحا للتقوى.

ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾.

وهنا يبين لنا الله لماذا تخلى عن هذا الإنسان العاصى أو الكافر، ذلك أنه أخلد إلى الأرض فاعتقد أن الخلود والبقاء فى الأرض وحدها، إما لأنه أنكر البعث والآخرة واعتقد أن الخلود والبقاء فى الفترة الزمنية التى يعيشها فى الأرض فعمل لها وحدها، وهنا فهو لم ينظر إلا إلى النفع المادى الذى تعطيه الحياة الأرضية دون ما نظر إلى القيم فى الحياة، أى إنه عمل من أجل الحياة فى الأرض وحدها وزاد على ذلك أنه فى هذا العمل لم يتبع الحق بل اتبع هواه.

وهنا لنا وقفة لماذا يذكرنا الله بعملية اتباع الهوى أو هوى النفس، ذلك لعدة أسباب: منها أن الله سبحانه وتعالى قد جعل منهجه قائماً على الحق و الحق غالبا ما يكون ضد ما تهوى النفس، فالنفس تهوى أن تأخذ ما لا حق لها فيه، فالنفس تهوى مثلا أن تأخذ شقة جارك وماله وأثاثه وكل ما يمتلك وتضمه إلى ما تملك، والنفس تهوى الفائدة العاجلة وهى فى سبيل ذلك تكذب وتزور وتنافق بدون أن ترى أثر ذلك كله على المجتمع وكيف أنها تفسده، والنفس تهوى أن يكون لها الكبرياء فى الأرض وأن تحصل على كل ما تريد دون ما عناء أو مشقة.

ولكن هل يستقيم المجتمع الإنسانى بهوى النفس، ماذا يمكن أن يحدث لو أطلقنا العنان وأبحنا لكل إنسان أن يسرق من المال ما يريد، وأن يأخذ من حقوق غيره ما يشاء، وأن يستعبد البشر ويسخرهم لخدمته، ما الذى يمكن أن يحدث في الكون إلا أن يتحول الكون كله إلى مجموعة من العصابات والقتلة، ويصبح كل إنسان غير آمن على حياته ولا بيته، فبدلاً من أن يسخر طاقاته لعمارة الأرض يسخرها لحماية نفسه، وتصبح الدنيا كلها مجموعة من الفوضى بلا نظام وبلا أمن وبلا معنى؛ لذلك وحتى فى الدول التى لا تتخذ من قيم الدين منهجا للحياة فإنها تضطر اضطرارا لكى تضع قوانين تعطى الحماية لكل فرد لتستقيم الحياة.

إذن.. فالمسألة هنا ضرورة يلجأ الناس إليها ليقوم المجتمع، وعندما يبتعد الإنسان عنها يفسد المجتمع، ويتحكم فيه هوى النفس فيكثر فيه الظلم والرشوة والاختلاس والفساد والفاحشة، والذي يتخذ هوى النفس وسيلة ينسى أن الله سبحانه وتعالى قد نظم الحياة ليحمى حق كل فرد فينا؛ ذلك أنه حرم علىَّ مال غيرى ولكنه حرم مالى على المجتمع كله فالمستفيد من قوانين الله هو كل فرد فى المجتمع.

والله سبحانه وتعالى يعاملنا بحق الربوبية؛ ولذلك فهو يرعى حقوقنا جميعا ولا يبيح لمسلم أن يسرق كافرا، ولا لمؤمن أن يعتدى على عرض غير المؤمن، فكل منا من خلق الله له حقوقه التي يجب أن يحترمها الجميع بصرف النظر عن درجة إيمانه؛ ولذلك عندما سرق مسلم من يهودى وأراد الصحابة أن يمالئوا المسلم ويتهموا اليهودى بالسرقة، نزل قول الله تعالى فى سورة النساء: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (١٠٩) ﴾ [النساء].

وكان هذا القول فيه حسم لئلا يحاول الناس ممالأة إنسان لأنه مسلم على حساب الحق، ذلك لأن الله سبحانه وتعالى وهو الحق لا يرضى فى منهجه بظلم مهما كانت

أسبابه، بل إن من قوة منهج الله أنه يحفظ حقوق الناس جميعا، حتى إذا جاء من لا يؤمن بهذا الدين ويقع فى خصومة مع من يؤمن به، ووجد أن القضاء هنا لصالحه ووجد أن الدين لم يسلبه حقه ولم يبح ظلمه لأنه لا يؤمن به أحس بعظمة دين الله وبأنه دين الحق، وربما دخل فيه واعتنقه، فإذا لم يعتنقه كان هناك دوى فى المجتمع كله عن هذا الدين الذى هو مع الحق وحده من دون النظر لأى اعتبار آخر، وفى هذا يحس الجميع بأن هذا الدين هو دين الحق لم يضعه بشر، ولم ينبع عن هوى حتى ولو كان ذلك يخدم أولئك الذين اتبعوه، بل نبع عن الحق المطلق الذى لا يأتى إلا من الله سبحانه وتعالى.

إذن.. فأعدى أعداء منهج الله هو هوى النفس، الذى يريد أن يقلب الباطل حقا، وأن يعطى لكل إنسان ما لا يستحقه ظلما، ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى يخبرنا أن ذلك الذى أخلد إلى الأرض واعتبرها هى دار الخلود ويعمل من أجلها فقط فلا يفعل شيئاً إلا للمادة، وزاد على ذلك بأنه اتبع هوى النفس الذى يهدم كل عدل فى المجتمع ويشيع الظلم والفساد، حينما يفعل أى إنسان ذلك يكون قد ابتعد عن مشيئة الهداية لله سبحانه وتعالى فيتلقفه الشيطان ويراه يتخبط بين مادية الأرض وهوى النفس فيأخذ به الفساد ويتخذه أداة لظلم الناس والاعتداء عليهم وسرقة حقوقهم.